

كان حبا

لا يجوز نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو نسخ مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو بطريقة إلكترونية أو بالتصوير أو ترجمته إلى أية لغة أخرى دون الحصول على موافقة الناشر والمؤلف مقدّمًا.

All Rights Reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the prior written permission of Bibliomania Ltd.



❖ الكتاب: كان حبا

❖ المؤلف: رولا المصري

❖ نوع العمل: رواية

❖ الطبعة الأولى 1440 هـ - 2019 م - القاهرة

❖ الناشر: ببليومانيا للنشر والتوزيع - مصر

❖ رقم الإيداع : 13942 / 2019

❖ الترميم الدولي (ISBN): 978-977-6754-15-7

❖ المدير العام: جمال سليمان

❖ العنوان: عنوان (1): 9 شارع محلات السلام من عمر المختار أمام مستشفى الزيتون

الخصوصي - الأميرية - القاهرة

❖ عنوان (2): 38 شارع عمر المختار - الأميرية - القاهرة

❖ تليفاكس: 0020226061014

❖ محمول: 00201210826415 - 00201065534541 - 00201208868826

❖ صفحة الدار على موقع فيسبوك: <https://www.facebook.com/bibliomania.eg/>

❖ الموقع الإلكتروني: www.ebibliomania.com

كل ما ورد في هذا الكتاب من أخبار وأحداث وآراء يعبر فقط عن رأي الكاتب، ولا يعبر بالضرورة

عن رأي الناشر، ودون أدنى مسؤولية على دار ببليومانيا للنشر والتوزيع



+201065534541



fb.com/Books.Bibliomania



fb.com/bibliomania.eg



fb.com/Books.Bibliomania

ببليومانيا - Books

fb.com/group/bibliomania.books



@BibliomaniaEg

كان حبا

رواية

رواة المصري





الإهداء

إلى من شرفني الله بأن أكون أمّاً لهما...
جميلتي الصغيرتين "ريم ورامدة درنيقة"

رولا المصري

20 شباط 2014

مانزال جالسةً هناك بكل هدوء تتوشَّح العتمة التي أرخت سدولها على المكان، تنصت بعمقٍ للغناء الذي تسرَّب سلاماً من خلال تصدَّعاتها إلى أعماق أعماقها، ولما بدأت تمتلئ به أخذت تطفو رويداً رويداً متجهةً نحو عالم غُلُوٍّ مليءٍ بالسكينة والأمان...ها هي تحطم رقماً قياسياً في ضبط النفس والثبات في المكان كالغرس وهي الفتاة الممتلئة حماساً وحركةً، المتمردة دوماً،

ثم أخذت تسكر بلذة هذه المواويل المنسكبة على سمعها مزيجاً عذياً من الأصوات والألحان والمعاني الزجلية، الحزينة السعيدة، القديمة الجديدة، فبعثت في روحها عطر الملحمة ونشرت في نفسها شذا التضحية فأنستها أنها آلام ومجدتها على أنها الآمال! وأخيراً بدأ الأمر يخرج عن سيطرتها! كلا لن تستطيع أن تلتزم مكانها أكثر!! فلقد راحت روحها تهتز وتطرب ومن قيود الانضباط تتسرب!! ذلك أنَّ الأرواح قائدة الأجساد، ترنقي الأرواح فتحلق الأجساد بتحليقها وتتنكس الأرواح فتتهبط الأجساد بهبوطها!!

ولمَّا أخذت الفرقة تغني

((يا ظريف الطول وكف ناكولك))

رايح على الغربية وبلادك أحسنك

خايف يا زريف تروح وتتملك

وتعاشر الغرب وتنساني أنا))

اشتعل الحماس في نفوس الجماهير وعلا التصفيق، وارتفعت المعنويات، وانضمت إلى الحشود الملتهبة وأخذت ترقص! ثم لمَّا اتبعتها الفرقة بغناء

((علي الكوفية علي ولولح فيها))

غنى عتابا وميجانا وسامر فيها

هز الكتف بحنية جفرا عتابا ودحية

وخلي البارود يهلهل ويحليها))

شعرت أنَّ البارود فعلاً فعلاً اشتعل وأشعل الأمل الجميل والأمنيات الملتهبة وهكذا لم تبق أية فتاة جالسة على مقعدها! فلقد تحلقت جميع الفتيات وأخذن يدبكن! وكأنَّ في اجتماع الفتيات على الدبكة تضامناً من

نوع آخر وكأن في ضرب الأرض بالأرجل تأكيداً أن جذورنا ضاربة هنا في أعماق هذه الأرض لا نغادرها ولا تغادرنا، إنها نوع من الرقص الجماعي المتحفظ ينشر في النفوس الحماسة والهمة ويزيل عنها الهم والعمّة!! وبعد مشوار رقص طويل، علت فيه الفتيات ونزلن، قمن فيه وقعدن، تمايلن يسرة ويمنى، أماماً وخلفاً، وتبادلن الأماكن والتصفيق.

نال التعب من النفوس مع انتهاء الغناء وتقطعت الأنفاس وتعرقّت الجباه، وتآقت الأجساد إلى بعض الراحة، فتوجهت الفتيات إلى مقاعدهن وبدأن بتجهيز جلساتهن بينما صعد على منصة المسرح مقدّم الحفل وقال: ((إنّ تقاعلكم اليوم يشيع في النفوس البهجة، وإنّ إسراعكم لحضور هذا الحفل الخيري الذي يعود ريعه لدعم أهلنا في غزة وفي هذا الفصل من السنة وفي هذا التوقيت الصعب بالنسبة للكثير منا، يبعث في الروح بعض الطمأنينة!

فغزة الصامدة الصابرة ليست بحاجة لنقودنا ونقودكم فأرضها معطاء وحقولها غناء وشعبها جبار ولديها من الخيرات ما يفيض عن الحاجة! لكنها بحاجة لدعنا المعنوي ودعمكم إنها بحاجة لدعائنا ودعائكم، لذكرنا لها وذكركم في هذا الزمان المر!! زمن الدّل والنسيان، زمن القهر والخذلان.... زمن الصمت العربي!!)).
شعرت بالأسى وهي تسمع وترى أبناء وطنها لا يتذكّرون جارتهم فلسطين إلا في المناسبات والحفلات ولا ينصرونها إلا بالغناء والشعارات!! ولا يمجّدونها إلا في الخطابات!! ولا يسمعون عن معاناتها إلا على الشاشات!! فقصّروا بحق الجيرة منذ عقود! وحلّ بدل السعي لنصرتها القعود! حتى إن بعضهم محا اسمها من الخرائط والأذهان بل وباعوها بالبخس والقليل من الأثمان! وقبل أن تسترسل في خواطرها وأسأها قاطع صوت مقدّم الحفل تذكيرها بقوله:

((والآن حان موعد تكريم ضيوفنا الكرام الذين وفدوا إلى طرابلس الشام من غزّة هاشم بقصد تحصيل الدكتوراه وقد كان لهم ذلك:

فباسمي وباسمكم جميعاً وباسم الجمعية المنظمة للحفل أهنيء الدكاترة الكرام:

الدكتور غيث الباشا

الدكتور رضوان عثمان

الدكتور حمزة أبو زيد

الدكتور عمار الحصني

فليتفضلوا إلى المنصة مشكورين

صعد الدكتور المذكورة أسماؤهم إلى المنصة وسط تصفيق الجماهير وألحان الترحيب ووقفوا صفّاً واحداً تلو وجوههم البسمة، يكلمهم الوار ، تحفهم الهيبة، وكان الدكتور (غيث الباشا) على ما يبدو أصغرهم سناً، ظهر ذلك جلياً من خلال الشيب الذي اشتعل في رؤوس أصدقائه وتركه!

وقف الدكتور غيث الباشا وقفةً رزينةً، فارداً كنفه، مباعداً بين قدميه، رافعاً رأسه شامخاً كالصقر ، تسلم كما باقي زملائه شهادته ودرعه التذكاري والنقط الجميع صوراً تذكارية ونزلوا عن المنصة!

أخذ سعيد ابن قريبتها -الطفل الصغير الذي يجلس معها في قسم النساء يظهر حبّ المعرفة في كل لحظة وكلما سمع حديثاً يسألها:

- لماذا سميت غزة هاشم؟!

- ربما نسبةً إلى جدّ النبي (محمد) هاشم بن عبد مناف.

- أليست أرض الإمام الشافعي؟

- نعم، إذاً أنت تعرفها

- نعم، حدثتني أمي عنها، إذاً هي من مدن فلسطين التي عاصمتها القدس

- أحسنت

- وهل؟!

- أرجوك أجل الأسئلة لوقت آخر ودعنا نسمع!

صمت الطفل وأخذ يتابع تناول حبات الذرة المتموضعة في حضنه بينما راح يورجج قدميه القصيرتين اللتين عجزتا عن الوصول إلى الأرض ثم عاد يسألها:

- متى سوف تسألين لي في الإدارة؟!

- بعد قليل

- منذ ساعة قلت لي بعد قليل!

نظرت إليه بعينين مغرمتين بطفولته وضرّيته بلطفٍ بإصبعها على أرنبة أنفه وقالت:

- هذا يؤكد لك أنني سوف أسأل لك بعد قليل!

لبث الطفل مكانه خمسة دقائق ثم نهض من مقعده وقال لها بكل حسم:

- أنا ذاهب إلى الإدارة لأسألها كما أوصتني أُمي

- انتظر أنا قادمة معك!

وهكذا بعد إلحاحٍ مريرٍ ومماطلةٍ سقيمة استسلمت منى له فأمسكت يده الصغيرة وغادرت به مسرح المدرسة حيث الحفل وصعدت البناء متوجهةً إلى قسم الإدارة، وصلت إلى مكتب المسؤول فوجدت الباب مغلقاً، طرقته بلطف فأتاها الصوت من الداخل:

- تقصّل!

دفعت منى الباب داخلتهً فهبّ نسيم عليل يحمل رائحةً عطرٍ رجاليٍّ أخذَ تغلغل إلى خلاياها وعطّرَ مشاعرها وعندما أصبحت في الدّاخل سرعان ما لمحت الدكتور غيث الباشا الذي تمّ تكريمه منذ قليل يجلس إلى جوار المدير... تقدّمت من المسؤول برزانة واستفسرت عن مبتغاها، سألته كما أوصت أم سعيد:

- هل تفتح هذه المدرسة أبوابها للتلاميذ اللاجئين؟!

كيف يمكن الانتساب إليها؟!

ماهي الأوراق المطلوبة من أجل ذلك؟!

وهل يوجد نشاط صيفي للأطفال هنا؟!

وبعد أن وثّقت الإجابات المطلوبة وهمت بالانصراف التفتت نحو الدكتور الشاب وقالت:

- مبارك حصولك على الدكتوراه

- ربنا يبارك بعمرِكَ! عقبالك!

- سعيدة لأجلكم

- ربنا يحفظك

- أنا على يقين أن كل ساعة يقضيها شباب غزة في طلب العلم هي رباط لا يقل أهمية عن رباط الثغور!

ردّ عليها:

- صحيح معكِ حق!

تابعت منى:

- أذكر أن معلمنا في المدرسة الإعدادية كان يصّر ويؤكد دوماً على مسامعنا أنَّ الفلسطينيين بالرغم من ظروفهم المعيشية الصعبة والتحديات القاهرة التي سببها وجود الاحتلال إلا أنهم شعب جبار متفوق، تجد عندهم أعلى مستوى إنجاب وأعلى مستوى تعليم. كان يرددها دوماً ليؤكد لنا أن الظروف القاسية ليست عائقاً أمام الدراسة والنجاح والاستمرار!

ردّ عليها د. غيث مبهوراً برغبتها في الحديث والتعبير عن الفرح والتضامن معهم كفلسطينيين:

- أستاذكم فهم

- كان يحبكم رحمه الله!

تبسم غيث في أعماقه وقال بمزح خبيث لذيذ:

- فقط أستاذكم من كان يحبنا؟!

شعرت بالخل بعد سماع سؤاله اللامح هذا وقالت في نفسها: (ماذا يقصد؟! هل يعقل أنني تحدثت أكثر مما ينبغي؟!

هل تحدثت بسذاجة؟! هل فهم حديثها على غير قصد؟!!

هل يعقل أنها أعطته فكرة غير صحيحة عن نفسها?!!!)

انطلق قلبها يخفق أسرع من العادة وشعرت بالارتباك وتسَلَّقت حمرة مفاجئة خديها فحسنت الموقف وقالت بقوة ممزوجة بحياء وأدب تريد توضيح للموقف:

- كلنا نحَبِّكم!

فرد عليها بشجاعة وإقدام وكأنه انتصر في جولة أحسن قيادتها واستمتع بقطف ثمارها:

- ونحن نحَبِّكم!

كان لجملته وقع شديد في قلبها عملت بقوة على إخفائه. ذلك أن المشاعر القوية سرعان ما تتقلب ملامح فضاحة على وجوهنا وحركاتنا.

تمنّت منى للمدير وللدكتور الجالس بقربه مساءً سعيداً وخرجت... أثناء سيرها أخذ غيث ينظر إليها مسحوراً وهو يشعر بأنه رآها في مكان ما ولكن أين؟!... أين؟! وفجأة تذكر أنه لا يعرف اسمها وهبّ يريد أن يسألها عنه لولا أنه تذكر صديقه المسؤول الذي انشغل عنه منذ دخلت هذه الفتاة!

في هذه اللحظات كانت منى تبتعد وهي متأكدة أن عينيه تراقبان خطواتها وتتأمل من حضورها قبل أن تغيب.

تابعت السير مظهره أقصى درجات الرزانة والهدوء متمدة إظهار الاهتمام بسعيد الذي عاد يمارس هوايته المعتادة في طرح الأسئلة:

- هل تعرفينه يا خالة؟!

تأملت منى سؤاله وبحثت في ذاكرتها وأعماقها تريد جواباً لسؤال سعيد وفجأة وجدته وفي الوقت الذي اكتفت بالقول لسعيد (ربما اعرفه!) أكثت منى لنفسها أنها عرفت لماذا تشعر أنها تعرفه. إنه يشبه الأسير ضياء الباشا المعتقل عند الاحتلال الإسرائيلي اعتقالاً إدارياً منذ سنتين والذي ضجّت وسائل التواصل الاجتماعي بصورة تحيي صموده وثباته بعد أن قرر منذ ثلاثة أشهر الإضراب عن الطعام رغم إصابته بمرض السرطان حتى ينال حريته.

هكذا أقنعت منى نفسها أنها عرفت سبب شعورها بأنها تعرفه حتى قبل أن تلقاه!

عاد سعيد ليسأل سؤالاً يضح بخبث الأطفال البريء:

- وماذا يقصد بقوله نحن نحبككم!

تبسّمت له منى وقالت:

- يقصد أن العرب يحبّون أهل فلسطين وأهل فلسطين يحبوننا!

ثم غصّت منى وقالت لنفسها: على مستوى الشعوب على الأقل!

نظر سعيد وراءه بينما كانت منى تشد يده تحته على الاستعجال وقال لها:

- ولماذا ينظر إلينا؟!

صعق سؤال سعيد منى وجعل قلبها يطرب لهذا السؤال الغبي الذكي المقلق المطمئن فصاحت به بصوت ينضح حسماً وحزمًا:

- ولماذا تنتظر للخلف؟ انظر أمامك!

وحثّته على العجلة فأنساه الإرهاق تكرر السؤال، ولما وصلت منى إلى البيت وجدت والدته سعيد قد نامت فسلمته لأُمها لكي ينام معها فهي بمقام جدته أو أكثر ثم دلفت إلى غرفتها وارتمت على سريرها وهي ماتزال تفكر بذلك الشاب! ما سره؟ ما كل هذا السحر الذي طوّق روحه؟!

هل السر يكمن في كونه شاباً مثقفاً جميلاً لفتها كل ما فيه! لفتها اختلاقه، رزاقته، منطقته وتلك القوة التي تشع في محياه!!

أم أن السِّرَّ يكمنُ في كونه شاباً فلسطينياً جميلاً لفتها كل ما فيه! ومن أين؟! من غزّة أيضاً!!

غزّة! تلك المدينة التي حفرت ذاكرتها اسمها في حروف من نارٍ ونور!!

ما تزال تذكر ذلك الصباح التراجيدي الدامي المترع بالألم الذي استيقظت فيه تريد الذهاب إلى الإعدادية وإذ بها تتفاجأ بوالدتها وقد تسمرت أمام شاشة قناة الجزيرة تتابع بوجهٍ مذهولٍ وعيونٍ تفيض دمعاً وملاحم تقطر قهراً وحرناً خبر اغتيال ذلك الشيخ المقعد الضريع الذي سمعت باسمه (أحمد ياسين) ومعه اسم غزّة لأول مرة.

لا تزال تذكر صورة الكرسي المتحرك الذي قصفته الصواريخ من طائرة الأباتشي وقد تناثرت حوله الدماء والأشلاء في مشهد لحّص القضية أمام ناظريها فقد نزع هذا المقاوم من مكان ولادته بفعل الاحتلال ثم أصيب بالشلل ورغم ذلك ناضل، تعلّم وعلم، خطب في الناس، تظاهر وحث على المظاهرات قاوم وحث على المقاومة اعتقل وخرج من أسره ثم اعتقل ثانية وخرج وظل يكافح ويناضل ويقاوم حتى استشهد فلم ييأس ولم يملّ من الكفاح!

إنه رجل يمثل شعباً يقاوم رغم التحديات وبأبسط الإمكانيات احتلالاً صلفاً مفترساً لا يتورّع عن نهش أجساد أبناء الأرض الأصليين ولا يشبع من دمائهم.

نهضت من سريرها فجأة وقد انتابها الخوف، فهي تشعر أنها أضاعت شيئاً هاماً في مكان ما! بحثت عن بطاقتها الشخصية فوجدتها في حقيبتها! بحثت عن صورة والدها الذي غيّبته الحرب فوجدتها، تحسّست جيدها فوجدت عقدها! ثم أنزلت يدها على صدرها فأدركت أنها نسيت عند ذلك الشاب الفلسطيني قلبها!

أضافت

21 شباط 2014

استيقظت مع بداية شروق الشمس كعادتها بالرغم من سهرها حتى وقت متأخر الليلة الفائتة، نهضت من سريرها بالكسل الأرستقراطي المعهود الذي لا تعرف من أين توارثته وهي الفتاة المثقفة والعاملة وابنة الأسرة المثقفة والعاملة أيضاً منذ القدم!

أبعدت الستائر عن النافذة لتسمح للنور بالدخول إلى غرفتها... لطالما رحبت بالصباح، وهي الفتاة التي لم تتمكّن منها الليالي الطويلة التي استطابت المقام في بلادها، والتي آمنت بقدرة النور على كسر قيد الظلمات، ثم وقّعت أمام باب الشرفة، تمدّدت رافعةً يديها نحو الأعلى، فتحت الباب بهدوء وخرجت إلى الشرفة وأخذت تبتسم ابتسامة اشتياقٍ للسماء الصافية وللشمس اللطيفة التي جاءت لتخرج المدينة النائمة من مهدها. ملأَتْ رنيتها بالهواء النقي ثم شعرت بأنّ الصقيع بدأ بتحسّس بها، ها هو يلفح وجنتيها العاريتين ويتحسّس أعلى كنفها، ضمت نفسها وأردت أن تستدير عائدةً إلى غرفتها فتعدّ فنجان قهوتها وإذ بعينيها نقعان تماماً في حضن عينيه!

ذهلت وهي تراه يرتدي ملابس الرياضة ويتمشّى مع صديقة مازاً تحت شرفتها! شعرت بالخدّر يتسلق على كنفها وأعلى ظهرها وسألت نفسها: هل هو نفسه؟!

هل هذا هو الدكتور غيث الباشا الذي تمّ تكريمه في حفل مناصرة غزّة البارحة؟!

ولكن كيف أتى إلى هنا؟! ومنذ متى يمارس الرياضة مازاً تحت شرفتي؟!

ثم استدركت وسألت نفسها السؤال الأهم: كيف تبدو هيئتي الآن؟!

وضّعت يدها على شعرها وأرجعت بعض الخصلات خلف أذنها وتبسمت له بإحراج فتبسّم لها بشجاعة وأكمل طريقه.

دخلت غرفتها وهي تشعر بالذهشة والذهول! الآن قرّرت الصّدق أن تتحدّث؟! ألم تجد أفضل من لحظة استيقاظي لتجعله يراني؟!

ألم يكن في الإمكان جعله يراني بعد أن أغيّر ملابسي مثلاً؟!

أو بعد أن أغسل وجهي على أقلّ تقدير؟!

أسئلة ظَلَّت تلح عليها وهي تجهز نفسها للخروج... وقبل خروجها تمام الساعة الثامنة صباحاً اجتمعت أسرته حول مائدة الإفطار، هذه المائدة التي أحضرت والدتها قواعد وآداب ترتيبها معها منذ حوالي 39 سنة عندما زُفَّت عروساً سورية إلى لبنان.

ما تزال حتى اليوم متقيدة بها، إنَّها تضع على الطاولة ما يقارب دزينة من الصحن المتناسقة الألوان المتوسطة الحجم وتوزع فيها زيتوناً أسوداً وزيتوناً أخضراً وجبناً ولبناً ولينة وزعترأ حلياً وزعترأ بلدياً وبيضاً مسلوفاً وبيضاً مقلباً وحلاوة ومربى فواكه وصحوناً أخرى تقطع فيها خضراوات متنوعة كالخيار والبندورة والنعناع وغيرها وكأنها تريد أن تعبّر عن حبّها المثالي لأسرتها بوجبة صباحية مثالية! وكأنها تريد أن تتخيمهم بالحب منذ أول ساعات الصباح حتى يستمدوا منه الطاقة لمحاربة العقبات على امتداد يومهم!

لم تنقلب والدتها يوماً الإفطار الجاهز الذي يشتري من خارج البيت! لطالما انتقدت (الكروسان) و(المناقيش) التي تسلب الأسرة اجتماعها الصباحي! وحميمته! ولطالما رأت في تحضير الإفطار المنزلي واجتماع الأسرة عليه تغذية لأواصر الحب وبذلاً في سبيل المحافظة عليه متقدماً يجمع كل أفراد الأسرة!

تصدّرت والدتها الطاولة وهي امرأة صبغت الأهوال التي مرّت عليها في الحرب الأهلية اللبنانية وجهها باللون الأصفر وعصرت جسدها فامتصت أنوثته!! ذلك أنها تزوّجت فعلياً ليلة اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية 13 إبريل (نيسان) ١٩٧٥ فلقد استيقظت على خبر فشل محاولة اغتيال الزعيم الماروني (بيار جميل) أثناء حضوره لندشين إحدى كنائس عين الرمانة ثم تلاه خبر المواجهة المسلحة التي تمّت بين أبناء عين الرمانة وبوسطة مدنية كانت تقل فلسطينيين عائدين إلى مخيم تل الزعتر بعد مشاركتهم باحتلال في مخيم صبرا فقتل 27 شخصاً من أصل 30 كانوا فيها أي نجا ثلاثة منهم بعد أن سقطوا تحت الجثث. هذه الحادثة التي لم تشكل مفاجأة لكل الذين كانوا يتابعون عمليات التعبئة الطائفية وشحن النفوس بالحق فلكد كانوا يتوقعون الانفجار! لن تنساها والدتها مطلقاً فلقد دفعت زوجها العريس لأن يتركها منذ ثاني ليلة لهما - برضاً منها ومباركة - أسبوعاً كاملاً يعمل في الطوارئ في المشفى الأقرب إلى مشفى القدس* حيث نقل جرحى عين الرمانة تحسباً لما هو أخطر!

ومع مرور السنوات عندما اكتشفت أنّ زوجها يعاني من ضعفٍ بالإنجاب لم تحزن كثيراً إذ لطالما تمنّت أن تنجب الأطفال عندما تنتهي الحرب ويعود السلم، وعندما طال أمد الحرب وانتشرت النيران وأحرقت لبنان

* مشفى القدس: مشفى تشرف عليها منظمة التحرير الفلسطينية نقل إليها المصابون الفلسطينيون في حادثة عين الرمانة.

وأسقطت عشرات الآلاف من الضحايا في حوادث لم يشهد التاريخ الحديث له مثيلاً في التفنن في الإحرام كالقتل على الهوية، والقتل بعد تعذيب الضحية فضلاً عن السلب والنهب والتدمير والتشريد، أصرّت أن تستمر بالعلاج والمحاولة حتى تنجب أطفالاً تقاوم بطهرهم ونقائهم قبح الحرب! وفعلاً وبعد مسيرة علاج مضنية استمرت 12 عاماً أنجبت بسام وبعده بعامين أنجبت منى... لكن الحرب التي سمحت لهاتين الفرحتين أن تستوطنا عمرها لم تنتهي إلا بعد أن اختطف زوجها!

قيل إنه أثناء عودته من المشفى تم إيقافه عند أحد الحواجز وقُتل هناك واخفيت جثته، وقيل إنه اعتقل عند ذلك الحاجز ومنه أودع السجن وأنه ما يزال في أحد السجون حيّاً يرزق كما قيل إنه بعد اعتقاله تمت تصفيته في السجن! ومهما قيل فإنها ماتزال تنتظره وقد ربّت أولاده على مبدأ عودته القريبة الأكيدة!

جلست زهراء إلى يمين الطاولة وزهراء ابنة أخت هذه الوالدة، شابة سورية لطيفة مهذبة درست فنوناً نسوية، متأهلة منذ ثماني سنوات من شابٍ سوريٍ مثلها تزوّجت زواجاً تقليدياً تعرّفت عليه عن طريق أهله وأهلها؛ خُطبت له فأحبّته وتقبلته وعاشت بهدوء معه بعد زواجها إلا أنه استشهد منذ عامين، قتله رصاص قناصٍ وهو يؤمّن الخبز لأطفاله!!

معاناة زهراء وتجربتها مع الحرب في سوريا واختفاء زوجها وتبنّي أبنائها مطابقة تماماً لمعاناة خالتها وتجربتها مع الحرب، إنما في لبنان... لذلك أصرّت عليها خالتها أن تترك بيتها في سوريا وتقيم معها في لبنان حتى يأتي (الفرج).

قطعت منى بضع زهرات قرنفل ووضعتهم في إناءٍ شفاف زينت به وسط المائدة وجلست على الطاولة متأهبة لتناول الإفطار مع أمها وزهراء وطفليها.

سألت الأم:

- كيف كان الحفل الذي حضرته البارحة؟!

ردت منى: جميل جداً... أناشيد... تصفيق... دموع... رقص... تهليل.. فعلاً فعلاً روعة، ليتكِ كنتِ معنا يا أمي أنتِ وزهراء!!

عقبت زهراء:

- أنتِ أعلم الناس بحالي يا منى! لا طاقة لي على مجالسة الناس وحضور الاحتفالات!

تابعت الأم:

- هل سألت عن إمكانية التسجيل لسعيد وزيد في المدرسة؟!
- طبعاً يا أمي... بإمكانهم التسجيل في أول العام القادم... ولقد أخبرتُ زهراء وبسام بذلك!
- بسام؟! متى حدّثته؟!
- البارحة مساءً، كنتُ أتحدث معه بعد عودتي من الحفل!
- وماذا أخبركِ؟! ماذا اعتمد في النهاية؟! هل قرّر السفر إلى الريحانية؟!
- نعم إنّه مسافر اليوم إليها.
- نظرت منى إلى ساعتها على معصمها وتابعت بعد لحظة تتكّر:
- سوف يصل إليها خلال ساعتين على ما اعتقد!
- ردّت الأم:
- يوصل بالسلامة! ثم نظرت إلى زهراء وقالت بوجه مبتسم بلبس العبوس تصنّعاً:
- (أنا لا أعرف كيف أنصرف مع هذا الصحفي المشاكس!
- أحياناً أقول: خليه جنبك بلا صحافة بلا وجع قلب
- وأحياناً أقول: خليه يروح ويتغرّب هيدي فرصته ليثبت جدارته ويحتل مكانه يستأهلها)
- عقبت منى مازحة:
- أمي!! دعي هذا الشاب الطموح وشأنه! ألا يكفيك أنّك احتجزت أخته هنا بقربك ورفضت كل عريس
- أحسن من الثاني بحجة البعد والغربة؟!
- نظرت الأم إلى زهراء وقالت:
- اسمعي ماذا تقول؟! قال أنا قال؟!
- أمنيّتي في حياتي أشوقها عروس وفي بيت زوجها! هي التي كانت ترفضهم!
- ردّت منى ضاحكة:
- طبعاً أرفضهم! أرفض ابن الوزير وأعيش بقرب أمي!

في الوقت الذي اكتفت الأم بنظرة لامعة أشرقت وسط وجهها الأصفر الذي يبدو اليوم أكثر شحوباً من عادته حوّلت منى نظرها إلى زهراء فاككتشتفت أنه لا مزاج لها اليوم لللكات مطلقاً إذ يبدو أن صحتها في تدهور أكثر من صحّة خالتها...

أمسكت منى الشوكة وبدأت بتناول طعام الإفطار حريصةً على إضافة بعض التحديث والمعاصرة لإفطار والدتها الأصيل والتقليدي الأمر الذي ساعدها في المحافظة على وزنها! بدأت بتناول الجبن البلدي المقطع بالشوكة، أتبعته لقمة خیار ثم قطّعت حبات الزيتون بالسكين وأزاحت النّوى جانباً ورفعت قطع الزيتون الصغيرة إلى فمها وحرصت على إرشاد سعيد وزيد وتعليمهما تناول الطعام تبعاً للإتيكيت.

أنصتْ إلى التلفاز وأخذت تتابع الأخبار الصباحيّة التي ما تزال منذ ثلاث سنوات كلما فتحت فمها قاءت الجراح والآلام والدّمار والخراب الذي تشهده سوريا موطن والدتها وزهراء وأخوالها أضعافت أضعاف الجراح والآلام والدمار والخراب الذي شهده لبنان في سنين الحرب كلها!

فتحت هاتفها وأخذت تتابع تعليقات المحللين والسياسيين على الأخبار الواردة من هناك، فمن قائل أنّ العملة السوريّة قاربت على الانهيار وأنّ النظام مصيره الاندثار سريعاً! ومن قائل أنّ العملة السورية وسوريا النظام من المستحيل انهيارها لأنّ روسيا وإيران والصين تدعمه، ومن قائل ألا حلّ إلا بالسّلاح وآخر يقول لا حل إلا الحل السياسي!

وأخير يقول إن ما يجري في بلاد الشام الآن هو من علامات يوم القيامة الكبرى! وبينما هي مشغولة تماماً بمتابعه الأخبار وإذ يمر بها فجأة منشور يقول إن صديقتها (أبرار) قد أصبحت صديقة الدكتور غيث الباشا!

غصّت منى أثناء ابتلاعها للقمة الجبن على صغرها، اتبعتها برشفة سريعة من كوب الشاي الدافئ وتأملت وجوه المحيطين بها محاولة معرفة إن كانوا قرأوا اسمه على صفحة وجهها أو رأوا حروفه في بريق عينيها؟! تماكنت نفسها أمام الجالسين حولها فقد ارتأت أنّ الوقت غير مناسب لكي تحدثن عما جرى لها معه البارحة وثار في رأسها ألف سؤال:

كيف عرفت أبرار حسابه على الفيس بوك؟!

هل طلبته منه بعد الحفل الخيري البارحة مساء؟!

ولماذا طلبته منه أصلاً؟!

وكيف تسمح أبرار لنفسها أن تضيفه؟!

كل هذه الأسئلة انطلقت كالسهام تستقر تفكيرها! ثم هدأت من روعها وأجابت نفسها: (ولماذا لا تضيفه؟!

ولماذا كل هذا الانزعاج من إضافتها له؟!)

حَسَمَت منى الموقف أوقفت سيل الأسئلة في تفكيرها وفتحت صفحته الشخصية على الفيس بوك وأخذت تتأملها! فرأت عينيه الدافئتين اللتين ابتسما لها بودٍ وترحيب الباردة مساءً واحتضنتها عينيها بحب اليوم مع شروق الشمس!

وأخذت تتصفح سريعاً منشوراته وكتاباته على صفحته فكُونت فكره أوليّة مرضيه جداً عنه، فعرفت عمره، وأسرته، ومكانته الاجتماعية، وعرفت أنه بالإضافة إلى كونه دكتور -أي متعلم جداً- وأنيق وجميل وودود فهو يحمل همّ وطنه يحل وينتقد، يقيّم ويتابع الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية بدقة. إنه يدافع عن غزّة بكل ما أوتي من قوّة ويسعى دائماً إلى توحيد الصّف ورأب الصدع وإلى التأكيد أولاً خلاص إلا بالوحدة بين جميع أطراف الشعب الفلسطيني!

من التأمل في صفحته الشخصية رشفت نفسها المزيد من المزار الذي كلّ المشهد في غزّة والمشابه للمرار المتدفق في سوريا اليوم، ومن التأمل في عينه رشفت روحها العزيمة على المقاومة والصمود! رفعت غزّتها السوداء الملساء المنسدلة على جبينها الحنطي وثبتتها بدبوسٍ بَرّاقٍ أضاء كالنجم اللامع في الليل الداجن وأضافت (غيث الباشا) إلى قائمة أصدقائها.

خطّطت

21 آذار 2014

استيقظت في الواحدة بعد منتصف الليل رغم العتمة التي تلف غرفتها إلا أنّ بعضاً من أشعة النور استطاعت التسلّل من الشارع إليها! فالمقهى المقابل لمنزلها أبى أن يغلق أبوابه وأن يستسلم كما أغلب المدينة لجبروت النوم!

أزاحت عنها غطاءها ودفعته جانباً ونهضت برويّة من سريرها! سارت في غرفتها على مهل وصلت إلى مكتبها، أشعلت المصباح المرتكز عليه، فتحت دفترها، أمسكت قلم الرصاص أخذت ترسم صورة وجهه رسمت رأسه المعتدل حجماً وشعره البني الغير كثيف، وخطت حاجبيه المقوسين ثم صورت عينيه الدافئتين وأنفه المدبّب وفمه المتوسط ونثرت لحية مشدّبه حول فمه وأثّنت بها تحديد ملامح وجهه ونثّلت الصفحة بالتاريخ:

21 آذار 2014 وكتبت تحته:

إنه ربيعي أنا!

أغلقت دفتر مذكراتها، وفتحت هاتفها الذكي وقالت في نفسها: فعلاً إنه هاتف ذكي لقد سرق بذكاء أربع سنواتٍ من عمرها منذ استوطن يدها وأدمنه بصرها!

وبدأت كعادتها تتصفّح المنشورات في صفحة أخيها بسام، تساؤلات كثيرة لاحت في رأسها لماذا لا ينشر صورته في الريحانية؟!

لماذا قلّت منشوراته كثيراً منذ سافر إليها؟!

لماذا انخفضت نسبة تفاعله معنا لدرجة تكاد تنعدم؟! بالرغم من أنّ بسام يحب نشر صورته في الدول التي يسافر إليها وهو في العادة نشيط جداً على وسائل التواصل الاجتماعي؟!

لماذا كل هذا الصمت؟!

أخشى أنّ هناك أمراً مريباً!

خطّطت أن ترابط على ثغور صفحته حتى تكتشف بنفسها ما الذي يحدث!

ثم انتقلت إلى صفحة د. غيث الباشا الشخصية وراجعت في نفسها خطوات المنهج الذي تسير وفقه منذ أن أضافته الشهر الماضي:

- 1- أضيفه إلى حساب الفيس بوك. كتبت: تم ✓
 - 2- تعرفي على أفكاره من خلال منشوراته بصمت. كتبت: تم ✓
 - 3- تابعي تعليقاته، فالتعليقات هي التي تكشف كيفية التفكير. كتبت: تم ✓
 - 4- حاولي التعرف على طبيعة أصدقائه (فالطيور على أشكالها تقع). تم ✓
 - 5- الصديقات على الفيس بوك تكشف أي نوع من الرجال هو. كتبت تم ✓
- إذا لم يبق إلا خطوة واحدة.....

اليوم اتّمت الشهر على إضافته، أي أنها منذ ثلاثين يوماً وهي قابعة في صفحته الشخصية تتابع منشوراته، تتأمل تعليقاته، تراجع صورته القديمة والحديثة، تتابع تعليقات عائلته عليها، تحصي إجابات أصدقائه وترصد إجابات صديقاته وتطارد تعليقاتهن بل وتعليقاته على صفحاتهن!

لقد أرهقها قربها الصامت، لا بد أن تتخذ الخطوة الأخيرة وتتقدم في علاقتها معه إلى الأمام وتخبره أنها: هي التي مازالت منذ ثلاثين يوماً تراه بزعم الصدفة تحت شرفتها!

وهي التي لم تترك بيتها خلال هذا الشهر إلا ووجدته في طريقها!

وهي التي تعرف تماماً أن صدفه متعمّدة وأنه يلاحقها رغبة في رؤيتها!

وهي التي تدرك أيضاً أنها بدأت تحبه لكنها تتجاهله رغبة في حفظ نفسها!

وهي التي تراه الآن تمام الساعة الواحدة بعد منتصف الليل يجلس في المقهى المقابل لمنزلها ينتظر أن يلعب طيفها!

وفجأة اشتعل الضوء الأخضر قرب اسمه (ما يعني أنه متوفر على الفيس بوك)

كتبت له: مساء الخير دكتور

ردّ: رد مساء الخيرات

- كيفك دكتور؟

- بخير، من يحادثني!

صدمت عندما قرأت (من يحادثني) وقمعت بسمتها وكأنها تخاف أن يراها- كيف ترد عليه؟ ويم ترد عليه؟! تجاهلت سؤاله وكتبت له: ألم يتأخر الوقت؟ ألا يجدر بك أن تكف عن السهر وأن تعود إلى بيتك؟!

أرسل لها إشارة استقهام؟

ثم تلتها إشارة تعجب!

صمت غيث مذهولاً! إذ من هذه الفتاة التي تأمره أن يعود إلى بيته! أو تعرف أنه خارج البيت؟! تلقت حوله فلم يجد فتاة، سأل نفسه: ماذا يحدث؟! وازدادت حيرته عندما ازداد صمت مني؟!

عاد غيث وبادر بالسؤال: من يحادثني؟!

وبينما هو ينتظر الجواب سارع إلى صفحتها الشخصية وحاول أن يتعرف على هذه الفتاة! يبدو أنها فتاة متحررة لكن متحفظة في مزيج جميل عجيب، لها صور لكن صورها لا تبدي وجهها! وفجأة أتاه ردّها:

- انظر أمامك تجد بناءً عالياً، اسمه برج الربيع هل رأيته؟!

كتب بدهشة:

- نعم!

- انظر إلى الشرفة في الطابق الرابع:

ازدادت دهشته عندما قرأها، فهذه شرفتها التي ينتظر منذ ساعات أن يلح من خلالها طيفها! نظر إلى الشرفة وازدرد ريقه!

فأشعلت الضوء في غرفتها، وأبعدت الستارة ولوّحت له بيدها أن مرحباً!

صعق غيث!

ثم ابتسم!

ثم ضحك، وكتب لها: هذه أنتِ إذا؟!

- نعم هذه أنا!!

- غريب، اسمك مني؟!

- وما الغريب في أن يكون اسمي مني؟!

- الغريب أن اسمك يشبهك كثيراً!

- لم أفهم! كيف يشبهني؟!
- قال في نفسه: غداً عندما تتركين أنكِ لنفسِي المني، سوف تفهمين كيف يشبهك اسمك كثيراً.
- تجاهل سؤالها وكتب لها:
- وتعملين محامية؟!!
- ما زلت متدربة في مكتب محاماة.
- رائع هل ورثتِ المهنة عن أحد أصولكِ أم أنكِ أول محامية في الأسرة؟
- أنا أول محامية في أسرتي، والذي طبيب وأمي تحمل إجازة في اللغة الفرنسية.
- أوه إذا أنت سليلة مفيدة عبد الرحمن!
- أرسلتُ له وجهاً عابساً وقالت:
- أنا أول محامية في أسرتي وليس في الوطن العربي.
- إذا تعرفين أنها أول محامية في الوطن العربي.
- طبعاً أعرف!
- تعجبني سيرتها الشخصية جداً!
- حقيقة أنا لا أعرف عنها أكثر من أنها أول من درس الحقوق وأول من عمل في المحاماة من فتيات الوطن العربي.
- غريب! ألا يهَمُّكِ أن تطلعي على حياتها الأسرية؟!
- كتبتُ له ربما غداً عندما أكون أسرة يهمني الموضوع أما الآن فلم أطلع على ذلك بعد!
- هل تعلمين أنها دخلت كليه الحقوق وهي أم لأكبر أبنائها وتخرجت منها وهي أم لخمسة أطفال!
- مستحيل!
- لا ليس مستحيلاً.
- رعاية خمسة أطفال مع الدراسة والعمل مسؤولية جبارة!
- لعلك هي حتى بعد التخرج والعمل استمرت بالإنجاب حتى أصبحت أمّاً لتسعة أطفال!
- أرسلت له منى وجهاً مذهولاً.

فتابع غيث:

- نعم استطاعت أن تكون أما ناجحة ومحامية متفوقة وزوجة ناجحة استمرّ زواجها ما يقارب الـ 60 سنة

- امرأة نادرة

- قد تتفوقين عليها في الأيام المقبلة.

- لا أنوي للحاق بها! وأرسلت له بسمه.

- بما أنّ الشيء بالشيء يذكر لقد نويْتُ اللحاق بك ذلك اليوم عند ما قابلتك في مكتب المسؤول بعد الحفل في المدرسة لأسألك عن اسمك لكن وجوده منعني!

أرسلت له وجهاً باسماً.

تابع قائلاً:

- لم أكن أدري أنّك صديقتي على الغيس بوك!

ردّت بكثير من الامتعاض:

- ربما لأنك تقبل كل طلبات النساء!

أرسل لها وجهاً باسماً بدوره ثم وجهاً تعلوه غمزه وكتب:

- ليست كل طلبات النساء، وإنما كل الطالبات! أفشّ في الصفحة الشخصية لمرسل الطلب قليلاً لأتأكد من عدم وجود شيء إباحي أو أي شيء لا أخلاقي ثم أقبل الطلب ببساطة!

لكن دعينا من الغيس بوك ومعضلاته وقولي لي:

منذ متى والأقمار تسكن في الطوابق الرّابعة؟!

سحرها لطفه وإدارته للحديث وتحويل مجراه وردّت عليه بالمثل فقالت:

- منذ أن قرّرت النجوم أن تستوطن المقهى المقابل لها! وأرسلت له غمزة.

لفته ذكائها وتجاوب معها بأن أرسل لها قلباً نابضاً وعقّب:

- وأخيراً وجدت طريقة لأحادثك بها!

سألته بدهاء:

- وهل كنت تبحث عن طريقة لتحادثتي بها؟

أجابها:

- أقصد...

أعني...

كنتُ... كنتُ أرغب أن أعرف اسمكِ فقط.

لم يكن غيث يعلم أن بحث منى عنه كان أكبر وأن لهفتها للحديث معه كانت أشد وأنها قرّرت مسبقاً وبكل إصرار أن توطّد علاقتها، وإنّها خطّطت أن تلتزم الصمت حتى تبدو لهفته أقوى ورغبته أشد ولكي يبدو هو صاحب المبادرة.

تجاهلت منى كل ما سبق وردّت عليه بفتور:

- والآن عَرَفْتُ اسمي!

- إنه من دواعي سروري أن أعرفه!

قاطعته بجفاء متصنع حملته كلماتها التي جاءت لتقطع عليه رغبته في الاسترسال أكثر فقالت:

- لا تطل السهر كثيراً! تصبح على خير.

ردّ عليها بحسرة لأنها تريد أن تنتهي المحادثة:

- حاضر، وأنتِ من أهل الخير!

شعرت منى ببعض الخيبة رغم النصر الكبير الذي حقّقه في حديثها معه لكنها سألت نفسها: لماذا لم يتمسّك بالحديث أكثر معها؟! لماذا لم يصِر عليها ليتابع الحوار معها؟! ألم يكن منذ لحظات في قمة سعادته لأنه وجد أخيراً طريقةً يحادثها فيها؟!

ثم عادت وسألت نفسها: لكن أليست هي التي أنهت الحوار وقالت (تصبح على خير)؟! كيف تريده أن ينهي الحوار وألا ينهيهِ في الوقت نفسه؟! كيف له أن يفهم النساء في الوقت الذي لا تفهم فيه النساء أنفسهن؟!

إلا أنّ غيثاً شعر أنّ الأرض لا تسعه وأنّه يخلوّ عالياً.... عالياً جداً! لقد عرف اسمها! ذلك الاسم الذي يستحيل أن يليق بها اسم سواه، ولقد نال شرف الحديث معها! وما أروعهُ من حديث! فهو على قصره يسلبُ العقول، يقلبُ القلوب، يلهبُ الحماسة، يغيّر إيقاع النبض ويرفع منسوب السعادة، لذلك ظنّ أنّه من الآن فصاعداً بإمكانه أن ينام قرير العين لا قلق يشغل باله في كَيْفِيَّةِ التعرف عليها. لم يكن يعلم أنّه من الآن

فصاعداً لن نعرف جفونه النوم إلا في آخر الليل ونادراً إلا بعد أن يراجع كل صورها ويدرس كل أفكارها ويتأمل كلماتها!

في النهاية أغلقت منى هاتفها وتبسمت ابتسامة الرضى! ولولا أن الوقت متأخر جداً لطرقت الباب على زهراء لتحدثها عن غيث، لماذا تشعر أن غيثاً يشبه زهراء؟! حسمت منى أمرها سوف تحدثها عنه قريباً جداً فزهراء خير داعمٍ لحبٍ أحد أطرافه فلسطيني!! ولكن دعها الآن تحتل لوحدها فلقد نفذت بعزيمة كل ما خططت له سابقاً ونجحت في التقدم خطواتٍ إلى الأمام.

22 آذار 2014

أمسك الكاميرا بيده وأخذ يصوّر الطائرة وهي تقترب حاملّة الموت، إنّه يكاد يرى العيون التي جحظت تترقّب الكارثة، ويكاد يشعر بالأنفاس التي توقّفت رعباً، لقد رصد تحليقها فوق مساكن المدنيين، وها هو أخيراً يصوّر كيف قذفت القنابل المتعطشة لتدمر الكيان البشري والحجري معاً، وماهي إلا لحظات بعد سماعه صوت الانفجار حتى أفلت الكاميرا من يده فسقطت وظلّت معلقةً بعنقه وأخذت تتأرجح مع حقييته التي أعدّ فيها استديو كاملاً بينما انطلق يركض باتجاه مكان سقوط القنابل يتبعه زميله وينادي عليه:

- بسام!

تمهّل يا بسام!

أرجوك! أرجوك تمهّل يا بسام!

الوضع ما يزال خطراً جداً

انتظر يا بسام!

وصل بسام إلى مكان سقوط القنابل يبغي توثيق الإصابات والأضرار ويرغب بنقل معاناة الأمنيين للعالم، وهناك كان قد بدأ بعض المدنيين بالتجمع، أخذوا يحاولون إسعاف الجرحى ونقل المصابين ورفع الركّام عن رؤوس الشّكّان.

شعر بسام أن الأرض تدور تحت قدميه، وأنّه لا يصدّق ما تنقله له عيناه!

بينما أخذ الصّداع يقوّض جدران رأسه! تمالك نفسه وأوقف الانهيار الدّاخلّي الذي حاول اجتياحه فلقد وطّن نفسه على أن الأحوال تنتظره. فعلاً رأى أجساداً تمرّقت أشلاءً وتناثرت هنا وهناك ورأى برك دم تمثليّ وعواميد دخان تتصاعد ونيران تلتهم أجساد الأحياء والأموات وسحاباتٍ من الغبار تجتاح المكان! وسمع صرخاً مستمراً وعويلاً وأنيباً وأصوات سيارات الإسعاف قادمة وصيحات السالمين تحاول رفع الأنقاض لانتشال المدفونين تحتها! فجأة رأى خلفية المشهد وقد انقلبت سوداء وقف مصدوماً بما يراه! لأول مرة في حياته يرى الموت وقد انتهى لتوه من افتراس ضحاياه، ها هو الدم ما يزال يلوث فكيه بل وما زالت قطرات الدم تتساقط من أنيابه.

وصل إليه زميله صخر وهو يلهث وقال له:

- أسرع دعنا نوثّق الحدث!

هزّ بسام رأسه موافقاً، تراجع خطوةً نحو الورا ثم صعد على صخرةٍ عاليةٍ قليلاً دون أن ينظر خلفه وأخذ يضبط صورة صخرٍ وهو ينقل الخبر... هناك مدّ أحدهم يده... أمسك بقدمه! تجمّد بسام في مكانه! وسرت القشعريرة في جسده! نظر إلى الأسفل وإذ بفتاةٍ مرميةٍ أرضاً يغطيها مزيجٌ من التراب والدّم وتكاد تلفظ أنفاسها!

هاله حجم الأذى لذي تكالب على جسدها النحيل، وحجم الضعف الذي يسكن ملامحها وأفزعه لوهلة الموت الذي يبدو وكأنه اقترب ليغتال عينيها بعد أن نثر على ملابسها الممزقة أوحال التخاذل البشري. تخلّى عن مهمته التوثيقية وأشار لصخرٍ لكي يحملها معه! وسارعا إلى سيارات الإسعاف فوجداها قد امتلأت إلى أقصاها؛ هاهي تنقيء دماء الجرحى الموجودين فيها ما اضطرهما لنقلها إلى المشفى الميداني بمساعدة سيارة مدنية.

وصلا إلى المشفى الميداني، إنه شقة بسيطة متواضعة في الطابق الأرضي من البناء فيها طبيب واحد وبعض الممرضين والمتطوعين الذين تحولوا إلى أطباء أحياناً وجراحين أحياناً أخرى بفعل ظروف الحرب! أُدخلت الفتاة إلى إحدى الغرف فيها، ووقف بسامٌ وصخر في الخارج ينتظران. سأل صخرٌ بساماً:

- والآن ماذا سنفعل؟!

- سوف ننتظرها حتى تخرج!

- لماذا ننتظرها؟!

- لأتأكد أن جراحها قد التأمّت وأن نزيفها قد توقّف على الأقل!

نظر إليه صخر باستغراب، وقال:

- وهل تظن أن جراحها سوف تلتئم أو أن نزيفها سوف يتوقّف!

- نعم! فمن أجل ذلك أنا هنا!!

- بسام اسمعني جيداً، هذا ليس عملاً صحفياً! أنت كصحفي مطلوب منك فقط فقط أن تتقل الأخبار وتوثّق الأحداث وأن تطلع العالم الخارجي على المصاب الداخلي في هذا البلد! لكن مهمة إسعاف المصابين والجرحى ليست من اختصاصك! إنها مهمة المسعفين ولا تظن أن مهمتك أقل أهميّة من مهمتهم، فالإسعاف

والنجدة تبدأ من نفلك للخبر وتوثيقك لما يجري وبدون عملك يموت الجرحى ويستمر القتل وتبقى كل الروايات قابلة للتصديق والتكذيب دون دليل.

- أعرف ذلك يا بسام! لكن لم يكن بإمكانني أن أتجاهل رعبها وأقوم بالتصوير.
- أنا لا أتحدث عن هذه الفتاة يا بسام! أنا أتحدث بشكل عام! أنت كصحفي يجب أن تقف على مسافة واحدة من الجميع مهنتك وأخلاقك الصحفية وآداب عملك تحتم عليك العمل بحيادية.
- أرجوك يا صخر! الحيادية تكون في نقل الأخبار وانتقاء الشهود، وليس في تجاهل المصابين من الأبرياء والمساكين.

- ليست مهمتك يا بسام! لديك مهمة أخرى، ثم أستطيع أن أفهم سلوكك فهذه أول مصابة تصادفها في أول تغطية ميدانية لك، لكن أرجوك أن تلتزم قواعد وقوانين المهنة في المرات القادمة.

قال له بسام بضيق واضح: حسناً!

تابع صخر: موضوع آخر يا بسام...

- ما هو؟

- ما بك تسألني وكأنك متضايق؟ أنا أرشدك لأحميك!

- تقضل أحميني!

تبسم صخر وقال:

- مسألة الأمان الصحفي يا بسام! اسمع ما أقول لك وضعها حلقه في أذنك كل العمر! لا يوجد خبر جدير بأن تدفع عمرك ثمناً له! لقد تسرعت جداً في الخروج من مكان تمركزنا وتسرعت في تجاهلك نداءتي، لقد عرّضت حياتنا جميعاً للخطر يا بسام!

ردّ عليه بسام بشيء من الحدة:

- الصراحة يا صخر لو كنت أرى أن حفظ حياتي وعدم تعريضها للخطر هو الأولوية عندي لما عملت مراسلاً ميدانياً في زمن الحرب!

ردّ صخر بهدوء وتعقل:

- كلنا مثلك يا بسام! لكن للعمل الصحفي قواعد وقوانين إذا لم يلتزم بها لن يبقى أي صحفي على قيد الحياة! وموت الصحفيين يضرّ البشريّة ويرفع فاتورة الدم في مناطق النزاع!

قال بسام قاطعاً الحديث:

- وماذا بعد؟!

- لا شيء أريد أن أحافظ عليك وعلى نفسي وعلى عملنا في خدمة الضحايا يا بسام، وأنت لأنك صحفي ميداني جديد وتعمل تحت إشرافي أرجو منك التقيد بتعليماتي.

- حسناً. قالها بسام وهو يشعر أنه يكاد ينفجر غضباً من صخر وتوجيهاته التي لا نهاية لها، التي تذكره بتوجيهات والدته المرأة المسنة التي وهبت أطفالاً عند الكبر فبالغت في محاولة الحفاظ عليهم وأصرّت على عدم الاعتراف بأنهم قد أصبحوا بالغين قادرين على الاستقلال والعناية جداً بأنفسهم.

فتح بسام هاتفه وتشاغل به عن صخر وتوجيهاته وابتعد عنه كاتباً لمنى مستخدماً تطبيق مسنجر:

- مساء الخير منى هل أنت موجودة؟

في لحظة واحدة أتاه جوابها:

- مساء النور يا أخي، نعم موجودة! كيف حالك؟!

- بخير، كيف حالك وكيف حال أمي؟

سألها بسام عن أحوالهم وتبسم بمرارة لإنجازات الإنسان (المنافق)، لا يعرف كيف أنته في هذه اللحظة فكرة المقارنة بين إنجازات الإنسان المتناقضة، الهدامة والبناء، القاطعة والواصله، المعمرّة والمدمرة في نفس الوقت، فلقد طوّر الإنسان من جهة أروع الأجهزة التي تحسن تواصلهم بقصد توطيد العلاقات بينهم بينما طوّر في الوقت نفسه أكثر الأجهزة والأسلحة القادرة على قتلهم وإبادتهم!

قاطعت منى المقارنة الطارئة على فكر بسام وأرسلت له:

- نحن بخير..... أين أنت الآن يا بسام؟!

لم يخبر بسام منى أنّه غادر تركيا إلى الدّاخل السوري وأنه كان منذ بضع ساعات قرب القصف يصوّر الموت في أشجع جرائمه ويوثق الاعتداء على الأبرياء في أقسى تجلياته! بل فضّل التهرب من إخبارها الحقيقة حتى إشعار آخر، وأختار إجابة صادقة يتجنب بها جريمة الكذب ويتهرب فيها من إحداث صدمة لأخته. أخبرها أنّه عند صديقه فنحن عادة ما نداري أحبابنا ونجنبهم أخبار السوء اعترافاً منا بأنّ الألم الذي يخلفه الفرق والبعد يكفيهم وإقراراً منا أن مشاركتهم الخبر السيء لن يحل مشاكلنا ولن يخففها.

وفي هذه الأثناء سمع بسام صوت طائرة جديدة تحلق في منطقة قريبة فأغلق الهاتف وعاد يترقب الرعب الذي تنتشره ويستشعر مَرَّ الانتظار الذي يبعثه انتظارها ريثما تحدد ضحاياها الجدد! ثم قذفت الطائرة قنابل الحقد ثانيةً وسمع صوت انفجارٍ جديد!!

نظر صخرٌ إلى بسام وسأله:

- هل ما زلت مصراً على الانتظار ريثما تلتئم جراح هذه الفتاة ويتوقف نزيفها؟

هزَّ بسام رأسه نافياً.

عقَّب صخر:

الآن سوف ننتظر حتى نتأكد من خلو السماء من الطائرات ثم ننتقل لمهمّتنا، علّنا نوثّق الحدث وننقل الخبر بأسرع وقت وأكبر قدر من المهنية والحيادية.

قال له بسام: حاضر!

وقبل أن يخرج بسام وصخر لتغطية ما جرى خرج الطبيب المعالج للفتاة، فسارع إليه بسام وسأله:

- كيف حالتها؟

- حالتها الجسدية ليست كارثية، إنها حرجة قليلاً لكنني متأكد أنها قادرة على تجاوزها.

هناك شعورٌ بسيط في الرأس في الفص الصدغي تسبب لها ببعض النزيف، يخشى أن تدخل في غيبوبة لكنني متأكد أنها لن تدخلها وإذا مضت أربع وعشرون ساعة بسلام هذا يعني أنها نجت من كل ما هو خطير لكن يبقى الأهم هو معرفة وضعها النفسي وتقييمه ومعالجته بعد أن تستيقظ.

- ماذا تقصد؟!

- ربما نحتاج إلى علاج نفسي أو دعم نفسي مختص في الأسابيع المقبلة!

قال بسام بسرعة وبشكلٍ عفوي:

- أنا لها.

تبسم له الطبيب وقال:

- أنت يكفيك عمك، وأنعم به من عمل!

قاطع صخر الطبيب وتوجه بالحديث إلى بسام:

- أنت هنا!!! لتوثيق الأحداث ونقل الأخبار (قالها ماداً الألف مؤكداً على كلماته)، ولست مسعفاً ولا معالجاً نفسياً.

قال له بسام وهو يضحك:

- أنا هنا لنقل الأخبار وتوثيقها ولمتابعة علاج هذه الفتاة أيضاً.

ردّ عليه صخر مازحاً:

- أنت ميؤوس منك!

ضحك الجميع بينما دفع بسام صخراً باتجاه باب المشفى وقال له:

- هيا بنا الآن لنغطي الحدث ودع مسألة اليأس مني علناً نجد لها حلاً في وقت لاحق

اشترطت

7 نيسان 2014

وقف أمام ركوة القهوة الرائدة على النار منذ بضع دقائق تغور وتغلي وتفوح منها رائحة الهيل تستجديه أن يتذكرها وأن يرفعها عن النار، وهو المشغول بمنى، السارح فيها، الدائم التفكير بها، ولولا أن وضع يده على الركوة وسحبها لا إرادياً بعد أن احترقت بعض الشيء لما عاد إلى واقعه.

أطفأ النار تحتها أخيراً... وضعها في صينية مع فنجانه الوحيد الذي يعاني من العزوبية مثله وكوب ماء وحملها إلى الشرفة. جلس على كرسيه هناك وأخذ يراقب السيارات وقد بدأت تتجول في الطرقات تماماً كما تتجول هذه الأفكار في رأسه.

ها هو يقلبها من الأعلى إلى الأسفل ومن الأسفل إلى الأعلى، يأخذها يمينا، يعيدها شمالاً فيجد نفسه مازال عند نقطة البداية؛ فمذ ستة أسابيع استوطنه رسمها، ومنذ أسبوعين وهو يعرف اسمها، وهو منذ ذلك الحين متفاجئ بشده قربها منه رغم بعدها!

إنه يحاول أن يبدأ أين يبدأ؟ كيف يبدأ؟ متى يبدأ؟

أسئلة ألحّت عليه حتى أرهقته، إن كلماتها تشده بقوة إليها وكذلك تفعل صورها التي ملأت بصره، واحتلت فكره، إنه يريد أن يقول لها منذ لمحها بثياب النوم على الشرفة لكن لسانه كان وما زال عاجزاً عن القيام بالمهمة، لذا قرّر أن يترك حريّة التصرف لقدميه؛ فهما تأخذانه إلى تحت بيتها صباحاً لممارسة الرياضة، وظهراً لتأمين حاجياته، وعصراً للنزهة، ومساءً للجلوس في المقهى! وهو كلما رآها ازداد شوقه لها وعجز عن التعبير.

لابد أن يبدأ، خاصة أن الوقت يداهمه وهو مضطر لمغادرة لبنان قريباً، لقد علم تقريباً كل شيء عنها فهي حائزة على الإجازة في الحقوق وما تزال تتدرب في مكتب للمحاماة (عزباء، جميلة، مرحة، وشخصيتها قوية، وكذا كل طالبات الحقوق...)

كل هذا وأكثر استكشفه من صفحتها الشخصية على الفيس بوك بالإضافة إلى أنها متحررة متحفظة في نفس الوقت.... وجاءت له خالته بمعلومة جديدة عنها أنها ابنة عائلة طيبة فقد سألت له عنها وعن أسرتها...

قال في نفسه: اليوم! اليوم يجب أن تبدأ! ولكن كيف أبداً؟

قال لنفسه: يجب أن اشتري باقة ورد وانتظرها تحت بيتها، ثم قال لا تنتظرها تحت بيتها، الأجدر أن تصعد وتهديها الورد على باب بيتها.

ثم تابع: ربما أرسل الورد مع العامل في محل الورد يبقى أسلم وأكثر لباقة!

وبينما كان يخطط في سره كيف يفاتحها بالموضوع تبين أنها متوفرة على الفيس بوك، فكتب لها:

- صباح الخير

لكنها لم تجبه سريعاً كعادتها!

في تلك الأثناء كانت منى مصابة بالدهشة والذهول اللذين ألجأ فيها! فلقد علمت لتوها أن أخاها بسام قد انتقل من تركيا إلى سوريا وإلى المناطق المشتعلة تحديداً فيها لتغطية الأحداث المتأزمة هناك. وقد تأكدت من ذلك عن طريق صديقه صخر المرافق له الذي أخبرها أن القناة انتدبت صخرًا وثلاثة من أصدقائه للعمل كطاقم يغطي الأحداث في مدينة حلب لكن بسام تطوع وأصر أن ينضم إلى طاقم القناة وأعلن أنه سوف يعمل مراسلاً مستقلاً في حال رفضت القناة إرساله، فأرسلته القناة بعد أن علمت تماماً أنه مدرك لخطورة الوضع! رغم صدمة منى وخوفها على أخيها إلا أنها استطاعت أن تتفهم سلوكه؛ فيسام شاب جريء يعلم تماماً ماذا تعني الحرب، الحرب التي حرمت والده وأنهكت والدته ودفعته زهراء لترك بلادها ويئمت أولادها! لا بد أنه قرّر قبل أن يخوض غمار الحرب واضعاً كاميرته بيدٍ وروحه بيدٍ أخرى ليساهم بطريقة فعّالة في إيقاف الحرب وفضح المعتدي، إظهار الحق ورد الحقوق لأصحابها....

ستون دقيقة مرّت بعد أن أرسل لها غيثٌ تحية الصباح مصّت بالنسبة له وكأنها ستون أسبوعاً ومضت على منى وكأنها ستون شهراً! شعر فيها غيث بالإحباط الشديد لتأخرها في الردّ وقال في نفسه (لا بدّ أني أزعجتها، لا بدّ أن كثرة حديثي معها قد ضايقها، تأخرها في الردّ يعني أنني أثقلت عليها وأن لا رغبة لديها للتواصل معي)

وبينما كان على هذه الحال يلوك بإحباط معاني وتفاسير وتأويلات عدم ردّها، أتاه جوابها:

- صباح النور.

فاجأته عبارة صباح النور، نسفت كل سيناريوهات الإحباط التي حالت في رأسه وأيقظت في نفسه نوعاً من التفاؤل والأمل! ذلك أن كلمة واحدة ممن نحب قادرة على رفعنا لأعلى مستويات التفاؤل وكلمة منهم أيضاً قادرة على قتلنا من شدة الإحباط!

كتب لها:

- كيف حالك أ. منى!

تتهّدت منى في داخلها ورثّت:

- بخير الحمد لله.

(حمدت منى الله في قولها وبكل قناعتها فالحمد سلاح المتزين الأقوياء الذين لا تهزم مصيبة ولا يثيبهم مصاب)

كتب لها غيث:

- كيف حال سعيد هذه الأيام؟

- بخير، مازال يعجب كلّ من حوله بأسئلته الكثيرة واستفساراته التي لا تنتهي.

- هل تعرفين أنني اعتقدته ابنك عندما رأيتهما في مكتب المسؤول بعد حفل التكريم.

- إنه قريبي وبصورة أدق ابن خالتي - طفلٌ مؤدّبٌ وخلوق.

- وكذلك هو طفل ذكي شديد الذكاء.

- كيف عرفت أنه ذكي؟!

- عادةً تستطيعين معرفة الطفل الذكي من قدرته على التركيز بالأمور المحيطة به لمدة طويلة، وهو طوال حوارنا لم يمل من الإنصات! ثم يبدو عليه من خلال مشيته، جلوسه ونظراته أنه أكبر من سنه، بالإضافة إلى ما ذكرته الآن الطفل الذكي كثير الأسئلة...

- هل تعرف ماذا سألني عندما خرجت من المكتب ذلك اليوم؟

- ماذا سألك؟

- سألني ماذا يقصد بـ(كلنا نحبك؟) فقلت له أن الفلسطينيين يحبون إخوانهم العرب وأن العرب يحبون الفلسطينيين، صمت طوال الطريق كنت أظنه مرهقاً بسبب العجلة لكن قبل أن نصل للبيت قال لي (أظن أن العرب لا يحبون فلسطين! فلو أحبوها لما تركوها محتلة!) تصوّر!

أرسل لها وجهاً باسماء ثم قال لها:

- حتى نظراته تؤكد أنه طفل ذكي! هل تعرفين أنك عندما كنتِ تمسكين يده وقبل أن تختفوا عن الأنظار التفت نحوي ونظر إليّ نظرة وعيد لا أعرف لماذا كان يتوعّدني بنظراته تلك؟!

أرسلت له منى وجهاً باسماً.

تابع غيث:

- أستاذة منى أريد أن أسألك سؤالاً

- تفضل

قال في نفسه: أسألها بكل هدوء هل أنت مرتبطة؟ ثم قال لا! أسألها بصيغة أخرى: هل لديك مانع من أن أتقدّم لحطبتك من أهلك؟ ثم قال لنفسه ثالثة: لا تسألها مطلقاً فما زال الوقت مبكراً على موضوع الخطبة، احذر التوقيت قد يفسد عليك كل شيء!

قاطعت منى أفكاره وأعادت عليه:

- تفضل ماذا كنت تريد أن تسألني؟

- كنتُ أريد....

كنت أريد أن أسألك كيف حال أستاذكم الذي كان يحبنا رحمه الله؟

قرأت منى سؤاله فترّرت على شفيتها بسمة خرجت من سجن خوفها على أخيها، فرغم القلق الذي سَكَن قلبها إلا أنها لم تستطع منع نفسها وأرسلت وجهاً يضحك بسذاجة. إذ كيف يستقيم أن يسألها عن حال الأستاذ وقد ذهب إلى رحمة الله؟!

ضرب غيث على جبينه وقد أدرك حماقته وقال في نفسه: يا لك من متسرع ومتهور! يا له من سؤال غبي فعلاً!

تداركت منى الموقف وقالت له:

- أستاذنا الذي كان يحبكم رحمه الله عاش ومات على حبكم!

كم تسعده كلمة الحب عندما تكون مدرجةً في حوار معها، كم يتمنى لو يصبح هو نفسه في يوم من الأيام المعني بهذه الكلمة!

كتب لها مباشرةً ومن دون مقدمات:

- أرغب بدعوتك لشرب فنجان قهوة معي.

- تبسّمت منى في نفسها وقد صدمتها هذه الانتقالة الفجائية من السؤال عن الأستاذ رحمه الله إلى الدعوة لشرب فنجان قهوة معه، وأدركت أنّ هدفه الرئيسي من الحديث هو الدعوة للخروج لكنه أخفق في وضع المقدّمة المناسبة.

هكذا هو المحب تخونه العبارات وتخفق الكلمات وتعجز اللغة عن الوصول إلى المقصود، كل ذلك عندما يرغب بقول شيء هام ومصيريّ لحبيبه!

قالت منى بعد بعض التفكير :

- لا بأس لكن لدي شرط

- تفضلي

- أن أختار بنفسني المكان المناسب

- بكل سرور

قالت له بذلك :

- برج الربيع هل تعرفه؟

- طبعاً

في الطابق الرابع بالتحديد يوجد بيت (آل الخلايلي)، إذا أردت أن تشرب فنجان قهوة مع ابنتهم (فأتوا البيوت من أبوابها)!

تبسم غيث لهذه الصفة اللطيفة، وجذبه هذا التقرّيع المبطن، وقال في نفسه: معها حق! بل معها كل الحق! بالرغم من أنّه لا يبدو عليها هذا التمسك الشديد بالتعاليم الدينية إلا أنّ شرطها يدل على عقلها قبل تدينها! قال لها غيث:

- إذا أخبرني آل الخلايلي، أنني قادم لشرب القهوة عندهم غداً عصراً.

- تبسّمت منى بذلك بعد أن أتاها جوابه وقد عرّى تماماً كل أهدافه، إنه يفكر في خطبتها وطلبها من أهلها، تريثت بضع لحظات، أوقفت بها قلب غيث عن النبض ثم كتبت له:

- آل الخلايلي فوّضوا ابنتهم وسمحوا لها أن تشرب القهوة مع من تريد قبل أن يروه!

اكتشف غيث حيلتها وعرف أنه وقع في الفخ وكشف لها أوراقه ونواياه وقال في نفسه: يا لذكائها العذب
الجذاب! يا لحيلتها اللذيذة!

استدرك تهوُّره وعقَّب:

- إذأ هل تقبل ابنتهم دعوة الدكتور غيث لشرب القهوة معه غداً عصراً؟

أجابت منى:

- نعم تقبل!

استطاع حديثها معه أن يجلب لها بعض السرور والبهجة وأن يخفف عنها وطأة مخاوفها هكذا هو الإنسان
مضطّر دوماً في مسيرة حياته الطويلة أو القصيرة لاختلاس الحيليات المبهجة ليحارب بها مرارة الحياة
الواقعية وإحباطاتها!

سُرَّ غيثٌ لقبولها دعوته وأخذ يعد اللحظات التي تفصله عن لقائه بها، وكذلك فعلت منى!

خَرَجْتُ

8 نيسان 2014

خَرَجْتُ من منزلها بكل هدوء ونزلت الدرج بخفةٍ وسرور وبها رغبة لأن تطير، وصلت الشارع، استقلّت سيارةً وانطلقت بها، شعرت أنّ السيارة تسير ببطء شديد وأنّ المسافة التي تفصل بيتها عن شاطئ البحر تعادل المسافة التي تفصل الأرض عن القمر. وعندما وصلت إلى الشاطئ المقصود أخيراً شعرت بأنّ نبض قلبها قد توقّف مع توقف السيارة؛ سألت نفسها وهي تسير باتجاه المكان الذي اتفقا أن يلتقيا فيه: لماذا تجتاح كل هذه الرهبة صدرها؟ وكأنها مراهقة خرجت سراً للقاء حبيبها؟

هي قالت (حبيبها)؟!

وبُحِتْ نفسها وتبسّمت في سرها وقالت: سيكون حبيبي يوماً ما، أو قد كان وبهذا القصد بدأت مشوار التعرف عليه أكثر.

لمحته وقد جلس بوقار يتصفح هاتفه، وصلت إلى الطاولة فنهض وكأنه كان يراها منذ أول دخولها الشاطئ، تبسّم في وجهها وأشرقت ملامحه وكأنّ وجهه الأرض وهي الشمس أنت لتتيره!

مدّ يده ليصافحها فتهبّبت وضع يدها في يده، لكنها صافحته فشعر أنّ نيراناً انتقلت من لمستها إلى أعماق أعماق كفه ومنها انطلقت كالسهم إلى قلبه الذي فجر قشعريرة في كل أنحاء جسده. سحبت يدها بعد أن نسي أن يستردّ يده، عندها تنبّه للوضع وتذكّر أن الوردة التي يصافحها شغلته عن الورود التي يحملها، قدّم لها باقة وردٍ وقال:

- تفضلي!

شكرته على هديته الجذابة، فقال لها: أنا الذي أشكرك لأنك قبلت دعوتي.

جلسا وتبسّما وساد الصمت بينهما، كل منهما لا يعرف كيف يبدأ الحديث، وكيف يستهله!

نظر إلى البحر وقال لها:

- المشهد ساحر جداً

- فعلاً البحر ساحر ولطيف

- والشاطئ في غرّة ساحرٌ أيضاً! رمال ذهبية كهذه ومياه زرقاء صافية ومراكب الصيادين تمخُرُ عباب البحر وضحكات الأطفال تملأ الشواطئ.

- جميل جداً على ما يبدو فغرّة ساحرة أيضاً.

نظرا فوجدنا شاباً استطاع أن يصطاد سمكة، دُهِشت منى وقالت مازحة:

- لقد أَمِنَ عشاءه الليلة!

قال لها غيث:

- في غرّة في مثل هذا الوقت من كل سنة تهاجر الأسماك من دلتا النيل إلى تركيا مروراً ببحر غرّة.

- إذا فأفخر أنواع الأسماك تزيّن موائد الغزيين طوال شهر نيسان.

ردّ غيث بصوت يشوبه بعض الحزن والحسرة:

- أبدأ فالاحتلال يمنع الصيادين من تجاوز عمق ستة كيلو متر أثناء الصيد بينما تسبح هذه الأسماك على عمق عشرة أمتار.

- أووه! حصار ظالم!

- نعم حصار ظالم جداً! أنتِ لا تعلمين ماذا يعني أن يحاصر قرابة المليون إنسان في قطاع مساحته 360 كيلو متر، ويمنع عنهم المحروقات والكهرباء ومواد البناء والدواء ويمنع حتى المرضى من السفر لأجل العلاج، وأن يكونوا عرضة لخوض غمار الحرب فوق كل هذا.

ردّت منى بصوتٍ متزنٍ متفهمٍ لفيض الألم الذي لمسته في حديث غيث:

- أعرف تماماً ماذا يعني، أنا التي أعرف ماذا يعني الحصار، وماذا تعني الحرب!

تبسّم لها وأخذ داخله يتفاعل مع جمال المشاعر التي رصدها أثناء إحساسها واستشعارها ألمه وحزنه على وطنه، وفجأة شعر أن حروفها تساقطت من شفتيها رغم حديث الألم وكأنها شهد يشتهي!

ربما ألد من الشهد الذي اعتاده في غرّة المحاصرة نفسها! وسأل نفسه لماذا عاد يذكر الحصار؟ حتى كأنه يلاحقه إلى لبنان.. لقد بدأ يشعر بضيق النفس!

شعرت منى باضطرابه وشروده مباشرة فأرسلت له نظرة تساؤل، فهم غيث سؤال عينيها (مابك؟) وردّ عليها مباشرة:

- لا شيء! لكن ربما الحرارة مرتفعة.

تبسّمت له منى وقالت مازحةً:

- لا بدّ أنها حرارة حب الأوطان! فالحرارة في الربيع معتدلة جداً.

تبسّم لها غيث ولمّا سمعها تذكر الأوطان لم يستطيع مقاومة شهوة الحديث عن غزة ثانيةً فعاد وحديثها عن مقاومتها عن شهدائها، ومخيماتها، عن حصارها، عن تكافل أبنائها وعن أنفاقها التي احتالت على القهر! شعرت منى أنّ الوقت غير مناسب لفنق الجراحات والحديث عن المآسي والمعاناة وهي التي تخرج برفقته لأوّل مرّة. ماذا لو حدثته عما يجري في موطن والدتها؟ ماذا لو حدثته عن موت زوج زهراء وهو يؤمن قوت أطفاله؟ ماذا لو بحثت معه موضوع الحرب المستعرة فيها التي خلّفت بعد ثلاث سنوات آلاف الضحايا والنازحين والمفقودين في أكبر الهجرات القسرية منذ الحرب العالمية الثانية! لكنها خرجت معه لتخرج من الواقع الأليم لذا فجأةً وقفت، فتنبّه غيث مباشرةً أنّها لا تؤدّ الاستمرار في هذا الحديث.

قالت له:

- أريد أن أمشي على الرمال فهل تأتي معي؟

بُهِت غيث من سؤالها وتجمّد في مكانه!

تقدّمت على الشاطئ واقتربت من المياه ثم خلعت حذاءها ووضعت جانباً وأخذت تدخل البحر رويداً رويداً، أشعره سلوكها بأنها لا تهتم بمعاناة المحاصرين في غزة وفلسطين! ولكن كيف؟ وهي التي صرّحت منذ أول حديث دار بينهما عن حبها لفلسطين وأهلها! لم يكن يعلم غيث أن الحديث عن الآلام قد ملأ صدرها وأثخن روحها وهي تحاول من أجل الاستمرار في الصمود والمقاومة تجنب الجمل الذي قد يقسم ظهرها.

رأها تدخل البحر، ثم تدعوه فيتسرّ في مكانه! إذ كيف يدخل البحر معها وهو يرتدي بزّة رسمية ويضع ربطة عنق؟! إنه الجنون بعينه!!

دعاها للخروج فرفضت وأخذت تلاعب الأطفال من حولها بالكرة! سحرتهم طفولتها، لفتته عفويتها وبساطتها، وبعد دقائق نظرت إليه نظرة عتب واحدة! فخلع سترته وحذاءه وركض باتجاه البحر وقرّر أن يصبح مجنوناً!



دخل البحر وأخذ يلعب معها ومع الأطفال فشعرت أن مياه البحر وضحكات الأطفال قد روت رثتها وزودتها بأوكسجين القوة اللازم لمتابعة يومها! فأخذت تلعب وتلعب حتى أنّها كُت!

ولمّا قرّرت أن تخرج من البحر كانت المياه قد بلّلتها من رأسها حتى أخصص قدميها . سارت منى أمام غيث
إذا بثيابها تلتصق بجسدها! شعر غيث بالإعياء عندما نظر إليها ثم سار خلفها وكأنه يريد أن يحجبها عن
أعين الناس وراءها!

لمّا وصل إلى الشاطئ ارتميا على الرّمال، نظرت إليه فلاحظت تغيّراً في وجهه، سألته:

- ما بك؟

- لا شيء!

- بلى أنت منزعج من أمر ما!

- بصراحة، ومن دون زعل؟

- طبعاً!

- كرهت أن يراك النّاس وقد تبلّلت ملابسك والتصقت بجسدك فوصفت وشفت!

تبسّمت في أعماقها وتساءلت أترأه بدأ يغار عليها؟ أحبّبت ملاحظته لكنّها حسمت أمرها منذ هذه اللحظة لن
تسمح له أن يتدخل في موضوع ملابسها لذا قمعت البسمة التي حاولت أن تشرق على شفتيها ورسمت
عوضاً عنها عبوساً مصطنع!

لاحظ غيث ما بدا له من امتعاض وانزعاج وعبوس سارع إلى مراضاتها قائلاً:

- هل انزعجت؟

ألم نتفق ألا نزعل!

قالت له باقتضاب: لا لم أنزعج!

عقّب غيث: بلى لقد انزعجت

- ثق أنني واعية بما فيه الكفاية، الأمر الذي يجعلني في غنى عن ملاحظات الغير لملابسي

- حسناً، أعددك ألا أتدخل بموضوع ملابسك مرّة أخرى

سكتت منى فسكت غيث بدوره وأخذاً يتأملان الغروب فاستغرقا في تأملاتهما عدة دقائق ثم سألتها غيث:

- هل سبق لك أن ارتبطت؟

- مشروع خطبة.... لكنها توقفت في بداياتها لأنني لم أحيّد السفر والغربة.

قال لها من دون أن تسأله:

أنا كنتُ متزوجاً من ابنة عمي ولديّ طفلان استشهدوا جميعاً في انفجار لغم وضعه الاحتلال!
- رحمهم الله! أعرف ذلك- لقد رأيت منشورات لك في تواريخ ماضية فيها صور لك ولطفليك ثم رأيت المنشورات التي تعزيك باستشهادهم! لكن ما لفتني في الموضوع هو أنك على ما يبدو تزوّجت صغيراً!
رسم غيث شيئاً من البسمة على وجهه وقال:

- في غرة -كما في كل فلسطين- نسابق الموت، نتزوج باكراً وننجب باكراً، فالإنجاب بالنسبة لنا صمود في الحياة ومقاومة! وخاصة أن للحرب حصتها فهي تلتهم الأحبة والنخبة من كل عائلة!

أردت منى أن تحدّثه بدورها عن الحرب التي التهمت أحبّ أحبائها (والدها)، وعن حصتها في عائلتها، أردت أن تحدّثه أن الألم واحد والمصاب واحد. لكنها سكّنت ليقينها أن الأيام المقبلة سوف تعلمه ذلك! واكتفت بتهيدة العارف ولأنّ الحديث عن الجراح في هذه الأوطان لا ينتهي قرّرت أن تستسلم وتعود إلى بيتها فعرض عليها أن يوصلها إليه بسيارته! قبلت وجلست معه في المقعد الأمامي فشعر أنه يحلّق فوق الغيم ثانياً ها هي تجلس في سيارته وإلى جانبه وها هو النسيم يداعب شعرها ويقلب خديها! كم يغار من النسيم عليها! كم حلم بهذه اللحظات وخطط لها! ولكن اللحظات السعيدة سرعان ما تنتهي، وهكذا سرعان ما وصلنا إلى بيتها!

نزلت من السيارة وودعته فأخذ يراقبها وهي تدخل البناء وقد تأكد أنّ علاقته بها قد خرجت من حيز الإعجاب إلى حيز الحب.

بالمقابل في مدينة حلب السوريّة كان بسام وزميله صخر قد انتظرا حلول المساء لكي يتابعا طريق العودة بعد ما انتھيا من تغطية الأحداث التي تجري في إحدى المناطق المجاورة للمشفى الميداني، سارع بسام وتوجّه مباشرة حيث ترقد الفتاة التي أنقذها منذ أسبوعين. دلف إلى الغرفة بهدوء واقترب منها إنْها تكاد أن تغفو، نظرت إليه بعينيها التائنتين ثم استمرتاً تسبحان في التيه حتى غلبها النوم بفعل الأدوية! ابتعد عنها ووقف خارجاً وهمس للطبيب: كيف حالها؟!

ردّ عليه الطبيب الوقور:

لقد خرجت من دائرة الخطر تماماً وتجاوزت المرحلة الحرجة، مازال رأسها يؤلمها بسبب الشعر الموجود في الفص الصدغي لكننا نكافح الألم بإبرة مسكن تأخذها كل ساعتين وما زلنا نضع لها المهدئات اللازمة في المصل لكي تتسّى مصابها، سكّط الطبيب لحظة ثم سأله:

- هل علمت ماذا حلَّ بأهلها؟!

نعم أخبرني أحد الشباب المسعفين أنَّ حريقاً شَبَّ في منزلهم إثر القصف والقذائف وأن جداراً منهاراً حجز أهلها في داخل المنزل ما يعني أنهم قضوا حرقاً بينما نجت لأنها سقطت خارج البيت بعيداً عن الجدار. ولكن هل تعتقد أنها رأتهم يحترقون أو سمعت صراخهم هم يذوبون بينما كانت ملقاةً على الأرض جريحةً لا تستطيع الحراك؟!

قال الطبيب بشفقة:

- هذا ما أخشاه يا بسام!

هزَّ جواب الطبيب أعماق بسام وشغل تفكيره لدرجة أنَّه لما انصرف مع صخر لكي يناما بعد عناء يوم عمل طويل لم يستطيع النوم فقد أمضى جلَّ ليلة يبحث في قرارة نفسه كيف يستطيع إسعاد هذه الفتاة؟! كيف بإمكانه الوقوف إلى جانبها؟! كيف يمكن أن ينسيها ما حلَّ بها؟!

طَرَقَتْ

9 نيسان 2014

في صباح اليوم التالي طرقت زهراء بلطف باب غرفة نوم منى تستأذن الدخول عليها، فسمعت صوتها من الدّاخل يقول:

- تفضل!

دخلت زهراء الغرفة وبادرت باللقاء تحيّة الصباح:

- صباح الخير

ثمّ عَقَدَ لسانها! لم تتفاجأ زهراء بكمّ الأناقة والترتيب الذين سيطرا على غرفتها، فمنى دائمة الترتيب تختار من الألوان المبهج والجريء ومن الأثاث الأيسر والأقوى، لذلك تشعر أن كل قطعة في غرفتها تضج بالحياة والصمود من الزجاج البرّاق الذي أسدل عليه ستارة بيضاء إلى الفراش المغطى بغطاء بهي الألوان إلى الأرض اللامعة إلى المكتبة الصغيرة المرتبة إلى الخزانة التي شرّعت أبوابها في هذه اللحظات تعرض على منى من الملابس أكثرها ترتيباً وحيويّة، كل هذا لم يفاجئ زهراء! بل فاجأتها باقة الورد الحمراء المتربّعة وسط مكتبها! سألت زهراء نفسها: أليست هذه باقة الورد التي نسقتها البارحة بيديها وباعتها لشابٍ ثلاثيني عرفت من لهجته أنّه فلسطيني؟! ما الذي أتى بها إلى هنا؟ هل تتمّ هذه الورود بأنّ قصة حب بدأت تغزو حياة منى؟! ومن حبيبها؟! شاب فلسطيني! يا لحظها السعيد!!

سُرّت زهراء وخبّت سعادتها في أعماقها احتراماً لخصوصيات منى! فمنى هذه الفتاة الصامدة كالقلعة في خضم بحرٍ من الظلمات يليق بها الحب فهو الأقدر على مدّها بالمزيد من النور والدفء والطاقة. وفي هذه اللحظات أتاها جواب منى:

- صباح النور

- كيف أصبحت اليوم؟

- بخير

- كيف أصبحت وكيف أصبح سعيد وزيد؟

- بخير أيضاً، ألن تأتي لتناول الإفطار معنا؟

- بالتأكيد خمس دقائق وأكون على الطاولة

- حسناً منى هناك موضوع معين أريد أن أبحثه معكِ
- تفضلي
- أشعر أنني بحاجة للبحث عن عملٍ جديد
- لماذا؟
- لم اعد أرتاح لفكرة العمل في تنسيق الورود، ربما العمل في مكتبة يناسبني أكثر!
- شعرت منى أنَّ في الموضوع ما تخفيه زهراء فهبت حرساً منها على مصلحتها لسؤالها:
- اصدقيني القول يا زهراء، لم ترغبين في ترك العمل؟ قولي بصراحة!
- الصراحة يا صغيرتي!
- قاطعتها منى بحسم:
- كفي عن مناداتي يا صغيرتي! فأنتِ أكبر مني بخمس سنواتٍ فقط! ما زلتِ شابةً وجميلة!
- عقبت زهراء:
- وهنا تكمن المصيبة!
- ما بك يا زهراء؟ أي مصيبة هذه؟ هل الشباب والجمال مصيبة؟
- للأرملة نعم! وخاصةً إذا كانت تعمل عند تاجرٍ تشكُّ في أخلاقه!
- صاحت منى مستغربةً:
- ما به صاحب المحل؟! هل يزعجك؟!
- بدأتُ أخافُ منه
- كيف؟!
- لا أعرف كيف أقول لك يا منى! ... لكني بدأتُ أشكُّ أنه يأتي إلى المحل صباحاً بعد ربما... بعد ليلة
- شكّر!
- دُهشت منى وقالت:
- ماذا تقولين يا زهراء؟! لا بُدَّ أنَّكِ مخطئة!! فصاحب المحل حيث يعملين رجل كريمٍ ومشهودٌ له ولأسرته بالأخلاق الطيبة والسمعة الحسنة وهو زوج بنتٍ إحدى قريباتِ أمي!
- لا أدري يا منى، ربما أنا أبالغ، لكني متأكدة أنني بدأتُ أرصد شيئاً غير مطمئنٍ في تصرفاته. ربما هي نظراته التي أنفجأ بها يختلسها! ربما هي لمسة يدٍ أو أكثر بدت وكأنها عن طريق الخطأ لكني لم أطمئنُ

لها! لا أدري حقيقة! وربما تصرفاته هذه جاءت تجاوباً مع الفكرة الخاطئة التي بدأ ينشرها المجتمع عن اللاجئين بشكل عام!

- لم أفهم قصدك.

- أقصد أن المجتمع هنا أخذ يشيع معلومات بشعة عن النساء اللاجئين بأنهن تركن الأخلاق في ديارهن وأتين إلى هنا وبسبب الحرب أخذن يمارسن أعمالاً غير كريمة ولا أخلاقية! قاطعتها منى مستنكرة بشدة:

- ما هذا الكلام يا زهراء؟! الموضوع لم يصل إلى درجة التعميم وإذا كانت هناك بعض السلوكيات الشاذة التي صدرت عن قلة من اللاجئين واللاجئات هذا لا يدفعنا مطلقاً مطلقاً إلى التعميم. فاللاجئ ضيفنا في هذه البلاد وسوف يعيش معنا مصاناً حتى تنتهي الحرب ويعود إلى دياره سالماً. علّقت زهراء مازحة:

- تماماً كما استضافت الدول العربية ولبنان أبرزهم سابقاً الفلسطينيين؟! ردت منى:

- تلك مأساة مغامرة لكن ما أعرفه أنه إذا كانت هناك بعض الجهات في لبنان قد اتخذت موقفاً سلبياً في الماضي من اللاجئ الفلسطيني فهذا لا يعني أن كل اللبنانيين كذلك. - أعرف... أعرف يا منى! ولكني أقول لك أن هذا الموقف السلبي من اللاجئ الفلسطيني سابقاً عاد ليتخذ من اللاجئ السوري فالشريحة الكبرى من المجتمع بدأت تنزعج من اللاجئ الذي أتى ليسلبها أعمالها وأرزاقها.

- المهم بغض النظر عن الموضوع إن تضايقت في عملك فاتركيه ورزقك مقسوم.

- معك حق... لذلك طلبت منك أن تساعدني في البحث عن عمل جديد

- حسناً سوف أفعل، لكن أرجوك يا زهراء لا تخبري أُمي عما يحدث في عملك!

- بكل تأكيد يا منى لن أخبرها- المسكينة خالتي أشعر أن صحتها في تدهور هذه الأيام

- بالمناسبة يا زهراء! منذ متى وأنتِ تعلمين بعمل بسام في سوريا؟

- أعلمني بذلك ليلة مغادرته للريحانية وأوصاني بك وبخالتي!

- اها! هذا يفسر سبب شحوبك على مائدة الإفطار ذلك الصباح! لكن لماذا لم تخبريني؟
- إنها رغبته، لقد حرص على إخفاء الخبر عنك وعن والدتك
- ترى هل علمت والدتي بالموضوع؟!
- أشعر أنها تعرف وتخفي عنا أنها تعرف! يبدو ذلك من التعب البادي عليها، من الإرهاق والذهول والشحوب الملازمين لها! من الدمعة التي تشرق في عينيها كلما ذكر بسام رغماً عنها!
- رغم كل هذا أرى من الأفضل أن نخبرها.
- معك حق يا صاحبة القرارات القوية والحاسمة والجريئة! فأنتِ ابنتها وأدرى بمصلحتها ولكني أرى أن نترث أكثر حتى نجد الوقت المناسب لإخبارها، فأنتِ تعلمين ماذا يعني أن يعمل الإنسان صحفياً ومراسلاً ميدانياً على أرض الحرب!
- أعرف يا زهراء أعرف، أعرف أنه المستهدف الأول من كل الأطراف المتحاربة فلا أحد يرغب في إظهار الحقيقة التي هي هدف بسام! لكن ومع ذلك فأنا أرى أن أخبر والدتي الحقيقة علها على الأقل تكثف له الدُعاء، فالحقيقة المرة أحلى بألف مرة من الوهم الجميل!
- قالت منى جملتها الأخيرة هذه وهي تفتح باب الغرفة فخرجتا منها وقد قالتا في الداخل كل ما لا يقال أمام الوالدة!
- اجتمع الجميع حول مائدة الإفطار كالعادة نظرت منى إلى (سعيد وزيد) فرأت فيهما (بسام ومنى) طفلان بريئان حرمتهما الحرب والدهما وتركتهما في رعاية والدته تعاني الأمرين من أجل تربيتهما! لعنت منى في أعماقها الحروب ولعنت حبَّ القتل من أجل السيطرة. هذا الداء والبلاء المتجذّر في الإنسان منذ البدء! إذ ما ذنب الأطفال أن يحييوا بلا آباء بلا أمهات أوبلا طفولة! نهضت من على المائدة بعد أن أنهت إفطارها. قبلت رأس والدتها وخدّي (زيد وسعيد)، وهنا سألتها سعيد:
- خالة منى من أهداك هذه الورود الحمراء؟
- سارعت والدته زهراء إلى تقطيب حاجبيها وإظهار عبوسٍ شديدٍ ووجهت نظرةٍ تقيحٍ لسعيد، وقالت له:
- ألم أقل لك لا تسأل عن خصوصيات الناس؟!
- تبسّمت منى له وقالت:
- فكر في جوابٍ لسؤالك حتى المساء وأنا سوف أخبرك من هو عندما أعود

لمعت عينا سعيد، تبسم لها وقال بمكر لطيف:

- هل أعرفه؟!

جلست منى في سيارة الأجرة متوجهة إلى عملها وأخذت تفكر بغيث هذا الوافد الجديد الجميل على حياتها، لماذا لم تخبر زهراء عنه بعد؟! لا بد أن الورد الذي رأيته صباحاً فعل ذلك! ولماذا لم تدعوه للتقدم لها رسمياً؟ إنها ما تزال تنتظر فرصة اقتناص الوقت المناسب لذلك! وبينما هي تتداسر وضعها الحالي في تفكيرها وإذ طرقت مسامعها بضع كلماتٍ قليلت باللهجة الفلسطينية كانت كفيلة بتغيير إيقاع نبضها وجذب اهتمامها! فلقد سمعت شابين فلسطينيين يتحادثان فأنصتت باهتمام رغماً عنها، قال أحدها:

- اللهم هجرة من هذه البلاد! ساعة ومش عارفين نوصل لأشغالنا!

ردّ عليه صديقه:

- احمد ربك ملاقي شغل! الفلسطينية اللي زينا ممنوعين يشتغلوا أكثر من سبعين شغلة

- ممنوعين قولتلي؟! على أساس لبنان الشغل فيه مقتل بعضو؟! ما للبنانية نفهم مش ملاقين يشتغلوا!

- آه والله البلد صغيرة والأرزاق داقرة!

- لكن ما تقوليش حتى لو كانت البلد صغيرة هذا لا يمنع إنّه في إجحاف بحق الفلسطيني!

أنا لأنّي فلسطيني ممنوع اشتغل طبيب أو مهندس أو صاحب مشفى إلا في قطاع خاص

أنا لأنّي فلسطيني ممنوع من التملك! ممنوع من أخذ ميراثي في بيت أبي!

لك حتى ممنوع من أخذ جنسية أمي!

آلم منى الحوار الذي طرق مسامعها على قصره ونكأ جراحها وهي الفتاة المتمرّدة على كل ما هو ظالم وجائر، الواقعة دائماً مع حقوق المرأة والطفل، الواعية بشكلٍ كبيرٍ ماذا يعني ألا تتساوى المرأة اللبنانية مع الرجل في الحقوق في بلد الحريّات والمساواة!

ماذا يعني ألا يتعدل قانون منع الجنسية اللبنانية منذ ما يزيد على التسع عقود؟!

ماذا يعني أن تحرم المرأة من منح جنسيتها لابنها! وماهي المشاكل الاجتماعية والنفسية المترتبة عليها؟ ليس ابتداءً بمشكلة تأمين الإقامة، وإجراءات تسجيل الزواج والولادة، إلى مشكلة دخول المدارس والضمّان الاجتماعي والصرف التعسفي وعدم القدرة على السفر وما إلى ذلك من مشكلاتٍ تهدّد أمن الأسرة واستقرارها! ثم قطّبت حاجبيها وقالت في نفسها:

- هل يعقل أن تستمر هذه المعاناة وأن تسمع هذه الشكوى على لسان ابنها في المستقبل؟

هل قالت (ابنها)؟!

نعم قالت ابنها!! أليس غيث الباشا الدكتور الفلسطيني والده؟!

ألن يحمل الطفل جنسية أبيه قبل جنسيتها؟!

هل بدأت تحلم بابن لها فلسطيني؟!

كيف لا وهي التي عاشت طفولتها تتابع مع والدتها عبر الشاشات أخبار أطفال الحجارة؟!

كيف لا وهي التي طالما سحرت بشجاعة فارس عودة¹ ذلك الفتى المغوار الذي واجه رتل دبابات الميركافا

بحجر؟!

كيف لا وهي التي طالما تألمت لمشهد استشهاد محمد الدرة² وتمنّت لو كان أخاها فلا تسمح له بمغادرة

البيت وتبقيه بسلام قربها؟!

كيف لا وهي التي خططت مع والدتها لاستضافة هدى غالية³ لتعيش معها في البيت وتعوضها عن أسرتها

التي قتلتها إسرائيل على شاطئ غزة أمام أعينها؟!

كل هذه كانت أمانيتها وأحلامها ومخططاتها طوال مرحلة الطفولة والمراهقة أما اليوم وقد أصبحت شابة

وعلى أبواب الزواج فإن أحلامها أخذت تتوقّد وتزدهر لحمل طفل فلسطيني في أحشائها خبأت منى خواطرها

في أعماقها فمحتبتها بهجة زادت قوتها وإصرارها وعزيمتها ولمّا توقفت السيارة بعد أن طرقت مسامعها قول

سائق السيارة (لقد وصلنا آنتسي) لفت نظرها صورة لحنظلة ذلك الفتى الفلسطيني الذي ولد عنيّداً يرفض

الواقع ويرفض الاحتلال ويرفض أن يتنازل أو يتغيّر، مازالت مرسومة على الحائط تبشّر بالتمسك بالثوابت!

تبسّمت منى في نفسها وقالت مزحة:

- لا بدّ أنّ أمه كانت عظيمة...

¹ فارس عودة: (1985- 2000م) طفل فلسطيني قتلته نيران الجيش الإسرائيلي قرب معبر كارني في قطاع غزة بينما كان يرمي الحجارة خلال الشهر الثاني من انتفاضة الأقصى ويذكر بكونه تصدى لدبابه إسرائيلية بجارته الصغيرة وأثارت هذه الصورة المجتمع الدولي وتصدرت صفحات الصحف والمجلات العالمية حينها.

² محمد الدرة: طفل فلسطيني من مواليد غزة استشهد في اليوم الثاني من انتفاضة الأقصى، قتل برصاص الاحتلال وهو يحاول الاحتماء خلف والده. التقط صورة إطلاق النار عليه المصور الفرنسي شارل أندريان مراسل قناة فرانس2 وأحدثت ضجة عالمية.

³ هدى غالية: (1994م)، ظهرت على القنوات الفضائية وهي تبكي بالقرب من جثمان سبعة من أفراد عائلتها على شاطئ بحر غزة (فيما يعرف بمجزرة شاطئ غزة)، حيث قصفت البوارج الإسرائيلية شاطئ غزة في بيت لاهيا وقامت بقتل عائلة هدى. استشهد والد هدى وخمسة من أشقائها، حيث ظهرت هدى ذات العشر سنوات وهي تصرخ في الرمل "بابا... بابا... صوروا صوروا" وهي تشير لجثة والدها الملقاة بجانيها، وهذه اللقطات التي ظهرت على التلفاز من تصوير المصور الصحفي زكريا أبو هريبيد كانت قد نالت استقطاب عالمي كبير في إظهار معاناة الشعب الفلسطيني.

أشترت

فَقَحَّتْ عيناها عند السَحَرِ، تَهَيَّأَ لها أنها سمعت صوتاً يشبه النحيب المكبوت! أنصتت قليلاً فلم تسمع شيئاً فحاولت أن تغلقهما ولكن منعتهما أصوات التسبيحات المنبعثة من منابر المساجد. ما أجملها من تسبيحاتٍ تجلي صدأ الأرواح، تغسل القلوب، تريح النفوس! ثم انتهت مرّةً أخرى لصوت النحيب! إنه صوت حقيقي وليس تهيؤاتٍ كما اعتقدت بدايةً، تساءلت في نفسها:

من هذه التي تبكي في مثل هذا الوقت؟! هل هي زهراء؟! هل عادت لتتذكر سيرة آلامها وأحزانها وأمراضها التي أدخلتها دوامة الاكتئاب؟! أم هذه هي والدتها؟! إذا كانت والدتها لماذا تبكي في هذا الوقت؟ سمعتُ منى شرقاً حادة وكادت صاحبة النحيب أن تختنق، قفزت من سريرها بسرعة وفتحت باب الشرفة المطلة على أبواب غرف النوم الثلاثة حيث مصدر النحيب أشعلت الضوء وإذ بها تتفاجأ بوالدتها وقد ارتدت ملابس الصلاة وجلست على سجادة الصلاة مستقبلة القبلة تدعو وتبتهل وتبكي وقت السحر.

سألت منى والدتها:

- هل أنت بخير يا أمي؟

- نعم بخير

- لماذا تبكين؟ لماذا كل هذه الدموع؟

لم ترد الوالدة على سؤال ابنتها، بل قالت لها:

- أريد كوب ماءٍ لو سمحت

- حاضر ثوانٍ قليلة ويكون عندك

أحضرت منى لوالدتها كوب الماء ولما شربته وحمدت الوالدة ربها سألتها منى ثانية:

- لماذا البكاء يا أمي؟

- أنا لا أبكي يا جميلتي لكن هذه الدموع بفعل الأنفلونزا!

تعرف منى جيداً أن والدتها كانت تبكي وتعرف أكثر أن والدتها لن تخبرها عن سبب بكائها، فوالدتها القوية التي علمت منى القوة والصمود لطالما احتفظت بآلامها وأوجاعها لنفسها ولطالما رفضت أن تقاسم الآخرين

إلا أفرحها! احترمت منى رغبة والدتها في عدم التصريح ولم تلح عليها إذ طالما اعتبرت أن الإلحاح في مثل هذه المواقف لا يندرج إلا تحت خانة الفضول الغير مؤدب، فاكثفت بسؤالها:

- هل تريدني مني أي شيء آخر؟

- كلا يا صغيرتي، عودي إلى النوم.

دلقت منى إلى غرفتها متوجهةً إلى سريرها وهي تكرر: عودي إلى النوم! أي نوم هذا يا أمي؟!

دخلت سريرها وفتحت هاتفها وهي مازال تشك أن والدتها تعلم بموضوع عمل بسام في سوريا فلقد مضى على دخوله هناك مدة شهرين قضى الشهر الأول متدرباً على العمل الميداني وها هو يكاد يكمل الشهر في العمل الميداني! وأخذت تتابع أخبار الحرب الدائرة في المنطقة حيث يعمل، والمفاجأة أنه بدا لها وكأنه متوقّف على الفيس بوك فكتبت له:

- صباح الخير

- صباح النور

- كيف حالك

- بخير، كيف حالك أنتِ وأمي وزهراء؟

كتبت له:

- كلنا بخير

ثم سألت نفسها: ماذا يعتقد أن أجييه على سؤاله وهو القابع في فم الموت؟ هل أجرؤ على إخباره بأن والدته قد علمت على ما يبدو بخبر عمله في سوريا؟

هل أجرؤ على إخباره أن زهراء تكاد تدخل دوامة اكتئابٍ حادٍ جديدٍ لشدة خوفها عليه؟ وحرزنها على ما جلبته الحرب من مآسٍ رهيبية؟

هل أجرؤ؟ هل أجرؤ....؟ وضعت حداً لتساؤلاتها وكتبت له:

- أخبرني الآن بصراحة ماهي أخبار المنطقة حيث نقيم؟

- أخبرها؟! كأخبار كل المناطق التي تعيش حرباً وتعاني القصف، لا موت إلا على الجبهات أو تحت قصف الطائرات!

- هل غيّرت مكان إقامتك كما نويت من قبل؟
- نعم لقد أمّنت لنا القناة مكاناً جديداً يقيم فيه طاقم القناة يسهّل علينا العمل.
- هل هو آمن؟ في أي منطقة؟
- نعم آمن جداً فالقناة اختارته بناءً على أبحاثٍ وتحريات طويلة، ونحن نعيش بين الأهالي، حقيقة إن سياسة القناة ودعمها لمطالب الشعب أوجدت لنا حاضنة شعبية رائعة فالكل هنا يتعامل معنا بمحبة ويحرص علينا حرصه على أبنائه
- هناك موضوع معين يقلقني جداً يا بسام وكلما أردت أن أسألك عنه أنساه
- ما هو؟
- موضوع الاتصالات يا بسام! الاتصالات تشغل تفكيري! كيف يمكن لي أن أتواصل معك إذا انقطعت الاتصالات نتيجة القصف أو الاجتياح أو نتيجة الفوضى في الحرب؟
- ردّ عليها بسام مازحاً:
- من البديهيات التي يجب على أخت الصحفي أن تعلمها هي أنّ الصحفيين لا يتواصلون عبر خطوط اتصال تابعة للدولة حيث يعملون! إنهم يعتمدون خطوط تواصل دولية آمنة، إما خطوط الثريا التي تعمل عبر الأقمار الصناعية أو عبر الإنترنت الفضائي! لذلك اطمئني ولا تقلقي فالاتصالات بيننا لن تنقطع.
- كيف أطمئن ولا أقلق يا بسام؟ والصحفي في بلادنا هو الأكثر عرضة للخطف أو التهديد أو القتل أو الاعتقال؟ أبسط التهم الموجهة له هي الجاسوسية، أرجوك فكّر في العمل الميداني ثانية.
- قال لها بسام وهو مصرّ على تغيير مجرى الحديث رغبةً في إبعاد القلق عنها:
- أنا الذي أرجوك، دعي القلق ودعيني أخبرك خبراً ساراً
- تقصّل!
- لقد تحسّنت صحة قمر كثيراً جداً، خلال شهرٍ واحدٍ خفّت حاجتها للإبر المسكنة فاستعاضت عن الإبرة المسكنة التي تأخذها كل ساعتين إلى إبرة كل يوم، ولقد اختفت نوبات البكاء ونظرات التيه والضياع التي استوطنت عينيها سابقاً لقد باتت عيونها تشبه عيون أمي نوعاً ما.
- رغم امتعاضها من مقاطعته لحديثها وتغيير مجراه تماماً إلا أنّ أخبار (قمر) تلك الفتاة المسكينة التي حكى لها بسام سيرتها المؤلمة منذ أن تعرّف عليها قد أفرحت منى فردّت عليه:

- فعلاً أخبار ساءة!

تابع بسام قائلا:

- والآن أخبريني بدورك ما هي أخبار غيث؟

- بخير إنه يرسل تحياته لك، لقد أخبرني أنه سرّ بحديثه معك جداً!

- وأنا سرّرت بحديثي معه، يبدو عليه أنّه شابّ عاقلٌ ما زال يجلّ القيم وتبهره الأخلاق

- فعلاً تقديسه للقيم والأخلاق يذكرني بأخلاق العرب القدماء

- متى سترينه؟

- اليوم عند المغرب

- أوصلي تحياتي له

في عصر هذا اليوم خرجت منى برفقة دعاء للتسوق فمنى فتاة ذكية صاحبة ذوق رفيع، أنيقة تجيد اختيار الملابس وتنسيق الألوان وانتقاء التفاصيل المناسبة، تلك التفاصيل التي تبرز مواطن الجمال وتخفي مواطن العيوب في كلّ جسد، لذلك دعتها دعاء للتسوق معها وأصرّت عليها.

أثناء حملة التسوّق المسعورة عمدت دعاء إلى شراء كل ما تشتري منه منى وزيادة، فبدأتا باختيار ملابس النوم الشفافة والمغرية ثم فساتين السهرة ثم الأحذية ذات الكعب العالي إلى العطور إلى مستحضرات التجميل من طلاء للأظافر إلى أحمر الشفاه إلى الكحل العربي ودبابيس الشعر والأطواق والأساور والعقود والخواتم وغيرها.

أمضيتا ما يقارب الأربع ساعات في عملية التسويق المضنية إذ لكي تختار إحداهن قطعة الملابس الواحدة يجب أن تجرّب أربعة قطع أو أكثر حتى تعتمد على الأفضل في نظرها وهذا هو الحال مع الأحذية أيضاً ولكن هذه الجهود الجبّارة لطالما انعكست راحة نفسية وتعديلاً للمزاج السيء الطارئ لديهما.

عندما انتهت الفتاتان من التسوّق توجّهت دعاء إلى منزلها أما منى فأسرعت إلى لقاء غيث في المقهى المعتاد عند شاطئ البحر، وعندما وصلت إليه وجدته يجلس كالمعتاد بانتظارها وقف وتبسّم لها، بادرته بالتحية:

- مساء الخير

- مساء الحب

- كيف حالك؟

- أنا مشتاقٌ وعندي لوعةٌ

تبسّمت له وقالت:

- أسفة يا أبا فراسِ الحمداني، فأنت تعلم أنني كنت في السوق وما أدراك ما السوق بالنسبة لنا!

- أعرف تماماً ما هو السوق بالنسبة للفتيات!! إنه موطن الفتنة ومبعث الراحة ومدفن الأحزان! ولكن أربع ساعات؟ أربع ساعات في السوق؟!

ضحكت منى وقالت:

- الأسواق تعرض الجيد والرخيص والغالي والرخيص ولكي تشتري ما يناسبك بالسعر الذي يناسبك يجب أن تبحث جيداً، وهذا يتطلب الكثير من الوقت في حال كنتَ لوحداً أما إذا كنت مع صديقة كصديقتي دعاء التي تصر على شراء كل ما اشتري منه وتأخذ رأيي في شراء كل ما تريد الشراء منه فهذا يتطلب عُمراً! صاح غيث:

- يا لغيره النساء! لكن دعينا من السوق والتسوق وقولي لي ماذا تريدان أن تشربي؟ ردت عليه:

- أفضل شيئاً بارداً، وقبل أن تنتهي جملتها رصدت منى في وجه غيث تغييراً مفاجئاً واحمراراً سريعاً تسلّق وجهه! سألته بدهشة:

- ماذا بك؟

تجاهل غيث سؤالها وبدا عليه كظم الغيظ! كرّرت ثانية:

- ماذا أصابك فجأة؟!

اكتفى غيث بأن نظر إلى تنورتها نظرة تقول هنا يكمن سبب ضيقي!

تتبع منى نظراته ونظرت حيث ينظر فأدركت أن شيئاً من قدميها مكشوف فعرفت مباشرة سبب ضيقه. نهضت بسرعة بهدف إصلاح جلستها وإسدال تنورتها فهذا الرجل تكاد تقتله غيرته عليها وإن لم يفصح! وفجأة وبسبب وقوفها السريع المفاجئ دفعت منى الطاولة فترنحت وسقطت أرضاً وسقط ما عليها من أكياس المشتريات وتفرّغت من الحاجيات التي فيها، وقبل أن يأتي النادل سارع غيث ومنى ورفعاً الطاولة وأعادا توضيب المشتريات في أكياسها. وفي أثناء ذلك أعجب غيث بذوق منى في انتقاء ملابس

النوم المغرية وفي اختيار الألوان الجريئة لكنه كنم إعجابه في صدره خاصة عندما رصد ارتباك منى وحياءها ولما همَّ بحمل الأغراض المتناثرة من آخر كيس وإذ به يجرح يده بزجاجة عطرٍ نسائية مكسورة. سال الدم سريعاً من يده الأمر الذي أخاف منى وأربكها، خطفت منى المناديل من العلبة التي وضعتها للتوسط الطاولة وأمسكت يده وعملت على تضميد الجرح وإيقاف الدم. تبسّم غيث لاقتربها منه إلى هذه الدرجة وأخذت نبضاته ترقص على إيقاع الرغبة في المزيد من الاقتراب، ولماً لاحظ تصرفاتها الغير معتادة عرف أنها خائفة عليه على غير عادتها فقال لها:

- هُوَني عليك! إنه جرح بسيط!

رُدَّت منى بسرعة:

- لكُنْك أخبرتي البارحة أنَّك مصاب بالتلاسيما، وعليه فإنك لن تتحمَّل خسارة المزيد من الدماء تبسّم غيث في أعماقه وسأل نفسه:

- أهذا هو الحب؟! أهكذا يصيِّر الأقوياء ضعفاء عند إصابة أحبائهم؟! ثم عقَّب:

- نعم أنا مصاب بالتلاسيما لكنها التلاسيما الصغرى إنها لا تتشكَّل أي خطورة على المريض وكل أعراضها تتحصر في فقر الدم لكنني أخبرتك من باب الأمانة لأننا على وشك الارتباط ولأنه مرض وراثي قد ينتقل إلى الأبناء.

عقَّبت منى:

- والآن كيف أتصرف؟ كيف أسعفك؟

تبسّم لها غيث وقال ببساطةٍ ممزوجةٍ بمرح:

- نضع المنديل نضغط به مكان الجرح ونتناسى الدم! في غرَّة عندما استشهدت زوجتي وطفلي أصبت ببعض الشظايا عندها نزت الكثير من الدم ويومها تم نقل أكياسٍ من الدم لي كأي مصاب آخر لكنني لم احتج لنقل الدماء قبل أو بعد ذلك.

قالت منى بشيء من العصبية:

- الدَّم!... الدَّم!

كل ذكرياتنا تتمحور حول الدَّم! كل حاضرننا يدور حول الدَّم! نموت بإراقة الدم ونعيش بالدَّم! لا ننال حقوقنا إلا بالدَّم! لا نحرر أوطاننا إلا بالدَّم!

ردّ عليها بسام:

- أنعم بالدّم المسال في كل الأوقات إذا كان ثمناً لنيل الحقوق وتحرير الأوطان!

نظرت منى إلى غيث نظرة تترجاه أن يتوقف عن ذكر الدّم، ثم لمعت دمعة في عيناها لكنّها أشاحت وجهها جانباً.

سكت بسام وقد شعر أنها تبالغ في انزعاجها فالموضوع ليس بحاجةٍ إلى كل هذا الانفعال بعد مرور عدة دقائق من الصمت اجتاحت فيها غيث طوفانات من المشاعر المتناقضة الممتزجة بين استغرابٍ وأسى بين حزنٍ وتفهمٍ، أخذت منى تبحث في أحد أكياس المشتريات إلى أن أخرجت لغيث مفاجأةً وقّدمت له هديته التي من أجله اشترت.

25 نيسان 2014

لم يستطع غيث أن ينام جيداً لقد أصيب بالأرق طوال الليلة الماضية، وانتابته مشاعر مختلفة خلقت مناخاً داخلياً مشحوناً بالحيرة والاستغراب وبتأنيب الضمير، لقد توصل بعد الدراسة المعمقة والبحث والمراجعة لما حدث إلى الجزم أنه كان السبب الحقيقي وراء تلك الدموع التي تفرقت في عيني منى والتي حرصت بدورها على قمعها، فأن تبكي منى يعني أن الأمور غدت لا تطاق في عرف العقلاء الأقوياء لذلك قرّر أن يشتري لها باقة ورد ويرسلها إلى بيتها منذ الصباح مع بطاقة اعتذارٍ يطيب بها خاطرها، فالورد فقط هو الذي يعرف كيف يواسي الورد! لذا ارتدى ملابسه على عجل وسارع إلى محل بيع الورود يبتغي انتقاء أفصح الورود القادرة على إيصال رسالة أسفه وحجم حبه لها، ولما وصل إليه انصدم! لقد وجده مغلقاً فقال لنفسه: يا لك من متسرع ومتهوّر! المحلات لم تفتح أبوابها بعد! لكنه عاد وراجع نفسه قائلاً:

ولكنني كنت أراه مشرعاً أبوابه في مثل هذا الوقت كل صباح!

ولمّا هم بالابتعاد عن المحل سمع صوت حركةٍ مبهمّة داخله أثارت الشكوك في أعماقه! أراد أن يبتعد لكنّ حدسه دفعه للعكس؛ اقترب من الباب ووضع أذنه عليه فسمع صوتاً دنيئاً يأمر ويهدّد وصوت فتاةٍ خائفةٍ تترجى وتبتعد.... سارع إلى أحد النوافذ الزجاجية الخلفية فأكدت له عيناها الشكوك التي نقلتها مسامعه، اشتعل الغضب في صدر غيث واثارت الدماء في عروقه وانقضّ على زجاج النافذة فخلعه بضربة واحدة واقتحم المحل في اللحظة المناسبة التي حالت دون تمكّن صاحب المحل من الإمساك بالمرأة العاملة عنده والاعتداء عليها!

بُهِتَ المعتدي وكأنّه يرى الموت يباغته على غفلة، أسرع إليه غيث ولكّمه مُبعداً إيّاه عن الضحية المسكينة، ودارت معركة غير متكافئةٍ سريعةٍ وحاسمةٍ بين غيث والمعتدي، كانت كل المؤشرات تشير من البداية أن لا طاقة للمعتدي بغيث وقوته! فسارعت المرأة وفتحت باب المحل وخرجت حاملةً بقايا كرامتها والكثير الكثير من القهر وحنّت خطاها هاربةً مرة أخرى بعيداً عن القبح والإجرام! ولما أطمأنّ غيث إلى رجليها نظر إلى صاحب المحل بعينين تقدحان شرراً. بصق في وجهه وقال:

- إياك! أن تقترب من أعراضنا يا نذل!

تركه أرضاً وغادر المحل.... وما إن ابتعد عدة أمتار حتى سارع إلى دخول المحل كثلعبٍ خبيث السيد (أبو الليل) جار تاجر الورود وصديقه، وكان قد سمع كل ما حدث مع هذا المعتدي والمرأة العاملة عنده لكنَّ خبيثته الدنيئة جعلته ينصت باستمتاع دنيء لما يتوقع أنه يحدث مع المعتدي والمرأة العاملة أولاً ثم لما يحدث مع المعتدي وغيث ثانياً.. ولما غادر غيث المحل دخل أبو الليل المحل متصنعاً للهفة على جاره والمفاجأة والألم على ماحلٍ به وأخذ يتعمد إثارة أسئلة تشعل الحقد وتثير الضغائن، فقال له:

- ماذا كان يفعل عندك هذا الكلب؟! (يقصد غيثاً)

سكت صاحب محل الورود واكتفى بمسح الدم عن شفتيه، تأمل أبو الليل مسخَّ صديقه الدم من شفتيه بنظراتٍ ألبسها ثوب التأثر والأسى وانتقل إلى السؤال الثاني:

- هل هو الذي أسال الدم عن شفتيك وكسر النافذة؟!

بصق صاحب محل الورد على الأرض والتزم الصمت!

فهم أبو الليل الإجابة من ردّة فعل صاحب المحل واستشفَّ رغبته بالانتقام، فقال:

- أقسم أن أجعله من النادمين، كيف يسمح لنفسه أن يتناول عليك هذا السافل؟!

أنا أعرفه جيداً، وأعرف كيف يمثّل الشهامة والغيرة!

- هل تعرفه شخصياً؟!

- نعم إنه الدكتور الذي يستأجر الشقّة من أخي في المخيم

- إذا أكنتم ما رأيتم حتى يأتي الوقت المناسب

- كما تأمر يا صديقي، لكن احتجت إلى أي مساعدة فأنا خدامك

في هذه الأثناء وبينما كان غيث يمشي في طريقه مبتعداً عن محل الورد واثقاً أنَّ صاحب المحل لن يحاول اللحاق به، لأنَّ الأندال والجنباء لطالما كان ديدنهم الاعتداء على الضعفاء في الخفية والظلام ولطالما كانوا أصغر من أن يواجهوا الذين يساوونهم أو الذين يتفوقون عليهم قوةً في النور وعلى مرأى الخلائق، وإذ يرن هاتفه، فيخرجه من جيبه وينظر إلى شاشة الهاتف وإذ المتصلة منى. غصَّ غيث لأنّه فوّت عليه فرصة إسعادها بباقة وردٍ تليق بها وفتح هاتفه متشوقاً لسماع صوتها لاعتذار عما بدر منه البارحة مساءً لكنَّ صوت منى باغته بلا تحية ولا تمهيد، ينادي وكأنّه يستجد به:

- غيث!

غيث... ماما يا غيث... ماما!

رَدَّ غيث متفاجئاً:

- أهلاً منى، ماذا بك، ماذا أصاب أمك؟!

- ماما...

أنا...أنا اتصلت بسيارة الإسعاف وهي نقلنا إلى المشفى!

- ماذا حدث لها؟

- أغمي عليها يا غيث!

واختفى صوت منى خلف بكاء أخذ يتسلق حنجرتها ويزاحم حروفها ليحل محلها!!

رصد غيث تأثر منى الشديد من خلال غصتها التي خنقت صوتها فقال مخففاً عنها:

- حسناً، أنا آتٍ إليكما! أراك في المشفى

أغلق غيث هاتفه حزيناً على منى التي خطط ليرسم البسمة على وجهها إلا أن الظروف أبت إلا تعانده وتعاندها، كم تحسر عليها وهي الفتاة الخلقة التي تحب الخير لكل أهل الدنيا إلا أن الدنيا لا تحب الخير لها.

منى التي تربت بلا أب أو أخت والتي تعيش الآن بلا أخ تنقل والدتها في هذه اللحظات إلى المشفى! ما

أقساها من حياة؟! ما أصعبه من توقيت؟!

وصل غيث إلى المشفى ف شعر أن خطواته تسابق الريح، تريد أن تطوي المسافات طياً ليصل إلى منى فيقف إلى جانبها بل ويحتضنها، نعم تمنى لو كان بإمكانه أن يفتح ذراعيه ويوسدها صدره ويسكنها أضلاعه فترتاح ويزول التعب وينتهي كل ما يؤلمها! لكن حضنها ما يزال محرماً عليه! أسرع إليها واكتفى بمصافحتها ثم سألها عنها وعن والدتها وعن الطبيب والغرفة التي أدخلت إليها والدتها، وبينما طلب من منى أن تجلس على مقعد الانتظار في موزع المشفى قرب غرفة والدتها سارع غيث وأمسك زمام المبادرة..... فأخذ يسأل الأطباء ويتابع مع الممرضين ويرفع معنويات منى، ثم علم أخيراً أن سبب غيبوبة والدتها هو الارتفاع الحاد المفاجئ لنسبة السكري في الدم.

وهو يعلم من قبل أن الارتفاع في نسبة السكري لمتبعي الحمية الغذائية يسببه الحزن الشديد، ولما خرجت الممرضة من غرفة والدتها، تسألهم من بسام؟ ومن لهم في سوريا؟ تأكد غيث ومنى أن والدتها تعرف أكثر مما يتوقعون.

أمضى غيث ثلاث ساعاتٍ من يومه يتابع فحوصات والدة منى ونتائج التحاليل ويناقش الأطباء عن وضعها وحالتها الصحية، إلى أن سمح الطبيب لهم بالدخول إلى غرفة والدتها فقد استعادت وعيها... فانطلقت منى إليها وأخذت تقبل كفيها وتحمد الله على سلامتها وانشغلت تماماً عن غيث وكأنها نسيت وجوده، تفهم غيث سلوك منى واقترب من باب غرفة الوالدة وطرقه، التفتت منى إلى مصدر الصوت وقالت:

- تفصل يا غيث! هل أنت بحاجة لاستئذان؟!

دخل غيث ووقف إلى جانب سرير الوالدة قرب منى وقال:

- الحمد لله على سلامتِك يا خالة!

عقبت منى:

- أُمي هذا غيث الذي حدثتكَ عنه جاء إلى المشفى ليقف إلى جانبي ويطمئن عليك

لم تكن الوالدة بحاجةٍ إلى أن تخبرها منى من يكون هذا الشاب صاحب اللهجة الفلسطينية والسلوك الذي يفيض شهماً لقد أخبرها قلبها منذ اللحظة التي رصدته داخلاً إلى غرفتها أنه غيث، الشاب الذي تعرفه منى والذي تحدث أمها عنه طويلاً.

أشرفت ابتسامة على شفتي الوالدة فكألت وجهها الشاحب وقالت:

- أهلاً يا غيث، أهلاً بك يا ولدي

- أهلاً بك يا حبة، خوفتينا عليك

- الله يحفظك يا ابني، هيدا السكر هلكني

وقبل أن تتابع الوالدة حديثها عن معاناتها بسبب السكري تفاجأ الجميع بزهرء تدخل مسرعةً وهي تبكي وترتمي على خالتها وهي تقبلها وتقول:

- سلامتِك... سلامتِك يا خالتي... ألف سلامة عليك

رأت عليها خالتها:

- الله يسلمك يا زهرء!

نظرت زهراء التي أعماها خوفها على خالتها عن الموجودين في الغرفة وهي تقول:

- ماذا حصل يا منى؟! لماذا لم تخبريني بما حصل لخالتي منذ البداية؟! ثم سكنت وعقدَ لسانها!
ردَّت عليها منى:

- لقد خفت عليك يا زهراء أكثر من خوفي على أُمي! وغمزت والدتها بعينها في إشارة تواطؤ بين منى وأُمها يتعمدانها كلياً أرادتا التحايل على زهراء لتجنبها الألم والمزيد من الاكتئاب.

فسارعت الخالة للقول:

- ولماذا تخبرك يا زهراء؟! وبم تخبرك أصلاً كل الأمور على خير ما يرام
ثم قطعت الخالة حديثها بشهقة استغراب ووجهت سؤالاً سريعاً وحارِقاً كالرصاص لزهراء:
- ماذا حدث ليديكِ؟

ارتبكت زهراء واضطربت نظراتها إلى أين تنتظر؟! وقد فاجأها الشاب الذي يقف إلى جوار منى، ثم قالت:
- بينما كنتُ خارجة من محل الورود دسْتُ على طرف توبي وسقطت أرضاً... تداركت ارتطام وجهي بيدي فأصيبتا... ثم كادت إحدى السيارات أن تصطدم بي... فشعرت بالكآبة وأسعرت إلى المنزل وجلست فيه وكنت بانتظاركما لقد اعتقدت أنكما في نزهة، لا في المشفى!

لم ترتح منى لإجابة زهراء لكنّها تجنّبت الاستفسار أكثر بوجود غيث فسارعت للقول:

- زهراء هذا غيث خطيبي المستقبلي الذي أحدثك عنه

غيث هذه (زهراء سالم) ابنة خالتي التي قدمت من سوريا والتي حدثتك عنها

نظر غيث إلى زهراء وقال لها متجاهلاً ما حدث في الصباح منذ عدة ساعات فقط:

- أهلاً وسهلاً أخت زهراء

غصَّت زهراء بصرها ونظرت نحو الأسفل وقالت:

- أهلاً بك يا دكتور

دقَّت منى النظر في عيني زهراء فأدركت أن بكاء زهراء قديم وأن عينيها متورمتان بشكل كارثي رغم أنها لم تخبر زهراء أن والدتها نقلت إلى المشفى عن طريق الإسعاف بل أخبرتها أنهما جاءتا بقصد إجراء تحاليل

روتينية لكن الطبيب احتياطاً طلب منها المبيت ثم إذا كانت قد علمت بخبر غيبوبة والدتها من الممرضات في الخارج فالوقت لا يسمح لها ببكاء يتسبب بتورم عينيها!

أعادت منى سؤال والدتها ولكن بصيغة أخرى:

- هل أنت بخير يا زهراء؟ هل حدث لك مكروه؟ هل تخفين عنّا شيئاً ما؟

نظرت زهراء مباشرةً فزعّة في عيني غيث وكأنها تسأله (هل أخبرتهم بما جرى صباحاً؟)

أذكر غيث بسرعة السؤال الكامن في عيني زهراء وتقهم رغبتها في إخفاء ما حدث لها صباحاً عن خالتها فلقد رأى في هذا الموقف الإيثار في أبهى صورته، فخالتها تخفي عنها حالتها الصحية خوفاً على نفسها، وزهراء تخفي بدورها ما حدث لها خوفاً على صحة خالتها، فلم يتردد غيث في الإجابة على سؤال زهراء بإشارة نفّ من عينيها! فاطمأنت زهراء وأجابت سؤال منى:

- كما أخبرتكم دست على طرف ثوبي فسقطت أرضاً وجرحت يدي...

منى لا تعرف حتى الآن أن زهراء وغيث كانا بطلي حادثة مروعة حدثت صباحاً وهي لا تعلم أن صاحب محل الورد إنما طلب من زهراء القدوم باكراً للمحل لأنه كان يضمّر ويخطط للاعتداء عليها! وبالتالي هي لا تعلم أن غيثاً قد شاهدها صباحاً وساعدها دون أن يعرف أن هذه المسكينة هي زهراء ابنة خالة منى، ودون أن تعرف زهراء بدورها أنّ هذا الشاب الشهم الغيور الشريف الذي ساعدها دون أن يعرفها إنما هو غيث حبيب منى!

أحسّت منى بالحزن الشديد والأسى على زهراء هذه الفتاة الضعيفة صاحبة الحظ العاثر التي لا بد أن يحدث معها كل يوم حادث، يفتت قلب منى أسى وحزناً عليها... رصدت زهراء شفقة منى فحزنت على نفسها أكثر وشعرت أنها على حافة الانهيار لكنها تماسكت!

هنا استأذن غيث وقال لوالدة منى:

- استأذنكم يا حجة أريد أن أذهب إلى البيت فأرتاح

ردّت عليه الوالدة:

- بعد بكير يا بني

- بكير من عمرك يا حجة! لكنني فعلاً متعب أريد بعض الراحة

- حسناً!! إذنك معك يا ولدي

سارت منى إلى جانب غيث تودعه فخرجاً من الغرفة معاً هناك قال لها غيث:

- اسمحي لي أن أتكفل بمصاريف علاج والدتك وتغطية نفقة إقامتها في المشفى!

تبسّمت منى لغيث وقالت:

- أشكرك يا غيث لكّن علاج والدتي وأدويتها وتحاليلها تتم على حساب الضمان لأنّ والدي عمل طبيباً في هذه المشفى في آخر سنواته.

- ومع ذلك إن احتجت إلى أي شيء أنت أو والدتك فأنا بالخدمة، (كم تمنى غيث أن يكمل جملته فيقول: ومع ذلك أن احتجت إلى أي شيء أنت أو والدتك أو زهراء المسكينة فأنا بالخدمة، لكنه قرّر السكوت عن اسم زهراء لكي لا يلفت المزيد من انتباه منى لما حدث لها)

أرادت منى أن تقبل رأس غيث بل رأس القدر الذي عرّفها على هذا الرجل الذي يشعّ قوةً ونبلاً وكرماً لكنّها اكتفت بقولها:

- أشكرك من أعماق قلبي أيها الغيث وغمزته!

ردّ عليها بثغرٍ وضاء:

- على الرحب والسعة دائماً أيتها المنى وغمزها بدوره وابتسم!

في هذه الأثناء وعلى البقعة الأخرى من الأرض ولغرابة ترتيب الأقدار كان بسام أيضاً في المشفى لكنّه في المشفى الميداني في حلب وأتى ليطمئن على (قمر)!

وقف بسام عند مدخل غرفتها ورنّا إليها من بعيد فرأى الممرضة وقد قدّمت لها صحن حساءٍ صغير، شعر بسام بأن قمر مشغولة بتناول الحساء، ها هي ترفع المعلقة الصغيرة إلى فمها الصغير لتسكب فيه شيئاً من الحساء. بدت وكأنها مهمة شاقة جدّاً على فتاة نحيلة مريضة ثمّ خطرت في باله فكرة فتبسم لها وقال: يا لهناء هذه المعلقة التي لامست كفها الجميل وقبّلت فمها الأجمل! ثمّ أدار ظهره لقمر وأخذ ينصت إلى الطبيب وهو يقول:

- يجب أن نحرص في هذه المرحلة على إفراغ المشفى قدر المستطاع بحيث لا يبقى فيه إلا الحالات الشديدة الخطورة

قال له صخر:

- بكل تأكيد فبحسب المعلومات التي وصلت لرجال المنطقة الثقّات فالمشفى قد يستهدف بأي وقت!

نظر الطبيب إلى بسام وقال:

- لذلك أرى يا بسام أنه من الضروري أن تخرج قمر من المشفى!

ردّ بسام بقلق:

- لكنّ يا دكتور أين تذهب قمر؟ وأنت تعلم أن صحتها سيئة ولا أهل لها ولا بيت يؤويها

- لا تقلق يا بسام صحتها تحسنت جداً جداً فلقد أصبح بإمكانها أن تهتم بنفسها إذ لم تعد بحاجة لمن يساندها عند السير أو الدخول إلى الحمام كما أن مقدار الأدوية التي هي بحاجةها الآن قد انخفض إلى الحد الأدنى. أما بالنسبة لموضوع سكنها فسوف نستضيفها في بيتنا تعيش مع زوجتي حتى يأتي الفرج!

شكر بسام الطبيب لقد أراحه بهذه الإجابة السامية وقَدّم له خدمة لا تقدر بثمن. أدار بسام وجهه ونظر إلى قمر فاكتشف أنها كانت ترنو إليه وتراقبه من بعيد! غصّت قمر بصورها وتظاهرت أنها تغير وضعية جلوسها وتستعد لأن تستلقي فوضعت رأسها على الوسادة وأدارت وجهها إلى الناحية الأخرى، عندئذ إنزاح الغطاء عن رأسها قليلاً كاشفاً بضع شعراتٍ بنية اللون، المشهد الذي ذكره بأمه وبجبابها وبشعرها البني الجميل الذي اشتاق له!

هنا سأل بسام نفسه: ترى ماذا تفعل أمي الآن؟!

4 أيار 2014

عاد بسام من مهمته ثم تبعه صخر واجتمعوا مع الطبيب في منزله، كان بسام يعمل على تغطية الأوضاع المعيشية للناس وكتابة تقرير يبين كيفية تأثر الأسواق بالحرب، بينما كان صخر يعمل في مكانٍ مجاور على تغطية استهداف القصف لمدرسة تجمع فيها النازحون.

جلس بسام متهاكاً على الأريكة المقابلة لصخر وقد بدا عليه جيداً أنَّ التعب والإرهاق قد تمكنا منه!

ابتسم صخر وقال مداعباً:

- أنت الذي جنيت على نفسك يا بسام! صحفي ميداني؟! ألم يعجبك أن تعمل إلا صحفياً ميدانياً؟ وفي زمن الحرب أيضاً!

ضحك بسام من مزحة صخر الساخرة التي يسخر بها من نفسه ومن عمله أيضاً، فصخر هو الصحفي الميداني الأكثر جرأة، والأقدم مهنةً، والأكثر مهنيةً، الذي طالما خاطر بنفسه من أجل نقل الخبر والحقيقة فكان يقصد الجبهات والمناطق الساخنة بينما يرسل بسام أو غيره من أفراد طاقم القناة لتغطية الأوضاع في المراكز الصحية، أو المدارس، أو الأسواق. فصخر صحفي صادق وشجاع وغيور على مصلحة أصحابه والناس من حوله يرضى التضحية بنفسه إذا اقتضى الموقف في سبيل المحافظة على أنفس الآخرين، وردَّ عليه قائلاً:

- يا أيها الرجل المعلم غيره...هلا لنفسك كان ذا التعليم

ضحك صخر بدوره من جواب بسام إذ لطالما كانت مجالسة بسام أكثر من بلسم للآلام وأكثر من محلٍ لمرار الأيام. هكذا هي الصداقة مصنع حب ودار فرح وحديقة آمال.

وفي هذه الأثناء وبينما كانت الضحكات المرهقة تتردد داخل الغرفة سُمع طرُقٌ على الباب فبادر الطبيب بالقول:

- تقضل، ادخل

دخلت زوجة الطبيب لتلقي عليهم التحية ترافقها قمر، تعلم قمر جيداً أنها مدينة بحياتها لبسام فهو الذي وجدها وأسعفها وأوصى الطبيب بها وتابع أخبار علاجها وظل إلى جانبها طوال الفترة الماضية حتى أمّن عليها وقد سكنت مع هذه الأسرة الطيبة. فتشت نظرات قمر عن بسام ولمّا أرادت أن تلقي عليه التحية

تَشَبَّثَتْ عيناها بالأمان الذافئ الذي أطلَّ من عينيه وبالرغم من أنها لم تحدّثه بالتفاصيل والأحداث التي حدثت لها مسبقاً إلا أنَّ عينيها قد قصتا عليه كل القصة فقد حدّثته عن جحافل الذل التي اجتاحت مدينتها، عن الموت الطائر الذي يخطف أرواح سكانها، عن القهر الذي اغتال أسرتها، وعن الألم الذي ألجم فيها وعن الرعب الذي حطم نفسيّتها، وهو بدوره كان يشفق عليها من أن تتكبّد عناء النطق بأي حرف فهو يعلم مسبقاً ما الحكاية، يعلم بها عندما كانت تدور في أرض وطنه قبل أن تكمل الرواية مسارها في وطنها، يعلم الحكاية ربما قبل أن تولد قمر نفسها لكنّه اليوم بدأ يفكر بكتابة حكاية من نوع آخر معها ولها، حكاية حروفها الحب لا الحقد، كلماتها السلام لا الحرب، عنوانها الأمان في الأوطان!

انتبه الجميع إلى نظراتِ بسام وإشراقه وجهه لما رآها وسعادته بدخولها وانتبهوا أيضاً إلى الخجل الذي أزهى ورداً على خديها عاكساً ارتباكها.

سأل بسام زوجة الطبيب:

- كيف حال ابنتكم الجديدة؟ (يقصد قمر)

ردّت عليه زوجة الطبيب والحبور يملأ صدرها:

- نعم البنات هي! خلوقة، مؤدبة، لقد أمضيت معها أسبوعٍ في حياتي

نظرت قمر إلى زوجة الطبيب نظرات محبة وامتنان واكتفت بالابتسامة والخجل.

تأمل بسام قمر وحركاتها فأيقن أنَّ العافية قد عادت لتسكن جسدها وأن الحياة أخذت تتبض في ملامحها فطردت من وجهها الشحوب وأحلت محله شعلة نور مشوية بحمرة نديّة.

قاطعت زوجة الطبيب تأملات بسام لقمر وقالت:

- أريد أن أسألك يا بسام

- تفضلي

- هل تستطيع أن تؤمن لنا هاتفاً جديداً؟

- بكل تأكيد، لكن لمن هو هذا الهاتف؟

- الصراحة أريده من أجل قمر، فقمر مقيدة في المنزل بفعل ظروف الحرب وانعدام الأمان وهي تشعر

بالممل لذا وجدت أنه من الأفضل أن نجلب لها هاتفاً ذكياً تحمل عليه بعض الكتب والروايات الإلكترونية

وبعض التطبيقات المفيدة علّها تملأ أوقاتها بالاطلاع والتعلم

أعجب بسام بالفكرة وانشرح لها صدره وقال:

- سوف أحضر لها هاتفاً جميلاً مثلها وسوف يكون هديةً مني

شكرت قمر بسام بنظراتها وابتهامتها التي لم تستطيع التحكم بها وإخفاءها وتساءلت في داخلها بأيهما تفرح أكثر بالهدية التي وعد بها بسام أم بوصفه لها أنها جميلة؟! (هل حقاً أبدو جميلةً في عينيهِ؟) سؤال حلّو ومَرٍّ، مريحٌ ومقلِّقٌ شغل عالم قمر الداخلي من جهة ومن جهة

شعرت بسعادة كبيرة تغمرها فما هي محاطة بأسرة طيبة رغم أنها لم يكن من الممكن أن تسمع بها أو أن تلقي بها من قبل، لكنَّ الحرب التي دَمَرَت الأسر وشردتها بَنَتْ أسراً جديدةً تربط بين أفرادها روابط مغايرة لرابطة الدم لكنها قد تكون أجمل وأمتن وأقدس!

شعرت زوجة الطبيب بالسعادة الغامرة التي ملأت صدر قمر تماماً كما تشعر الأم بأنفاس الطفل الذي في حضنها، وتوجَّهت نحو بسام وقالت:

- هل تعلم يا بسام إنني على يقين أن القراءة هي الوحيدة القادرة على إخراج قمر من عالم الحرب هذا خاصةً أن قمر قد أخبرتني أنها كانت مولعة جداً بالكتب والدراسة وكانت دائماً تنجح بدرجة تفوقٍ في مدرستها

أطرقت قمر رأسها وتوقفت الحبوبة التي كانت تنبض فيها، لاحظ بسام هذا التحول المفاجئ ورصد الحزن الذي أشاعه ذكر المدرسة فيها فسألها:

- ما بك؟ لماذا حزنتي فجأة؟

رَدَّت قمر بغصة:

- المدرسة كانت بيتي الأول وليست بيتي الثاني لكن الحرب ضيَّعتها قبل أن ترزقني الأقدار بيتي الجديد هذا!

حرَّ جواب قمر في أعماق زوجة الطبيب قبل أن يواسيها، فهي تعرف جيداً أن الحروب تغتال البشر، تقتات على أجساد أبنائهم، تتربع على موائد الدم والدمار، وتستنزف حاضر الآباء وتضيع مستقبل الأبناء، وبينما كانت قمر تشعر بالامتنان للقدر الذي وهبها أسرة طيبة تقاوم معها قبح الحرب كان غيث يسأل الأقدار معاتباً؛ لماذا لم تعرِّف الأقدار من قبل على منى وأسرتها، كيف أخفتها الأقدار عنه وهو الذي كان يمرُّ تحت شرفتها منذ ثلاث سنوات عندما بدأ بالتحضير لرسالة الدكتوراه على الأقل مرتين أسبوعياً؟

ها هو يطرق باب بيتها يستأذن للدخول على والدتها، يبغى الاطمئنان عليها بعد مغادرتها المشفى، استقبلته منى مرتدية ثوباً زهرياً أنثوياً يبعث في النفس الانشراح إنسدل على جسدها المائل للنحول الممتلى عند الصدر والأرداف قليلاً فأكسبها إغراءاً شهياً وارتمى فوقه شعرها الأسود فزادها إغراءاً ولذة في عيونه. سلم عليها غيث بحرارة مخفياً حرارة أشد تقور وتغلي في داخله!

رحبت به منى وقالت:

- تفضّل...ماما في الدّاخل

دلف غيث إلى غرفة والدتها البسيطة والمريحة فوجد أمها وقد تحسّنت قليلاً وزاد من شدة التحسن لديها رؤيتها لغيث الذي رحبت به بعيونٍ تشع محبةً وبهجة، قدّم لها غيث باقة ورد وقال:

- كيف حالك يا أمي؟

تبسّمت والدته منى عندما سمعت غيثاً يناديها (يا أمي) للمرّة الأولى وقالت في نفسها: ما أروع الأقدار حين ترزقك أولاداً برةً من حيث تدري ولا تدري
ردّت عليه بحنان:

- بخير...يا ولدي، أشكرك على هذه الورود الجميلة، لماذا كلّفت نفسك عناء شرائها؟!

- لا أقل من ورود تغرس البهجة في ناظريك يا أمي

ولما تحدث عن الورد تنكّر زهراء، وقال للأم:

- كيف أصبحت زهراء؟

- المسكينة زهراء تركت العمل منذ ذلك اليوم المشؤوم الذي جرحته فيه يديها ومن يومها وهي تشعر بكآبةٍ شديدة ولا قدرة لها حتى الخروج من غرفتها!

جلست منى بكامل بهائها أمام غيثٍ تشع سحرًا وجمالاً، لكن سرعان ما قاطع رنين الهاتف الأجواء الدافئة التي أخذ غيث يشعر أنها تنتشر -وخاصة أنّه رن إلى جوار غيث- أمسك غيث الهاتف فبدا له أن اسم المتصل طارق، وسلمه إلى منى. خرجت إلى الغرفة الثانية لتتمكن من الرّد بهدوء، وهناك أتاها صوت دعاء ينبعث من الهاتف:

- آلو... كيف حالك يا منى؟ كيف حال والدتك؟

- أهلاً دعاء، كلنا بخير

- هل بإمكان طارق أن يأتي لزيارة والدتك الآن؟
- طبعاً.. طبعاً.. وهل طارق بحاجة إلى مواعيد لزيارتنا يا دعاء؟!
- حسناً سوف أخبره.
- سلامي لوالدتك
- سلام
- دخلت منى غرفة والدتها، فسألتها:
- من المتصل؟
- أجابت منى:
- إنها دعاء تطمئن عليك
- ذهل غيث عندما سمع منى تقول أن المتصلة هي فتاة تدعى دعاء بينما ظهر له على الشاشة أن المتصل هو شاب يدعى طارق! وقفزت أسئلة سريعة في رأس غيث (من هو طارق؟!... لماذا منى تكلمت معه بعيداً عنه وعن أمه؟! لماذا أخفت اسمه؟!)
- وبينما خرجت منى إلى المطبخ لتعد العصير ما هي إلا دقائق حتى فتح سعيد ابن زهراء باب البيت لضيف مازحه وأكمل طريقه بكل هدوء إلى غرفة الوالدة؟ وعندما دخلها تفاجأ الضيف بوجود غيث كما تفاجأ غيث بدخول هذا الضيف بهذا الشكل الاعتيادي وكأنه يدخل بيته.
- في نفس اللحظة دخلت منى الغرفة حاملة أكواب العصير فأشرق وجهها ونادت:
- أهلاً وسهلاً يا طارق!
- رد طارق مبتسماً:
- أهلاً بك يا منى، ثم تابع سيره نحو سرير الوالدة اطمأن عنها وقبّل رأسها
- قدّمت منى العصير لغيث وقالت:
- غيث... هذا طارق ابن عمي وجاري...يسكن في الطابق الذي يعلونا تماماً
- تبسّم غيث له وقال:
- أهلاً وسهلاً تشرفنا
- ثم قدّمت العصير لطارق وقالت:

- طارق هذا غيث! وتابعت السير نحو والدتها لتقدم لها شراب العصير

انزعج غيث عندما اكتفت منى بتقديمه أنه (غيث) وحسب! وقال في نفسه: ألسْتُ دكتوراً؟! ألسْتُ حبيباً؟! ألسْتُ شبه خطيب؟!

لم يكن غيث يعلم أن منى أخبرت طارقاً عن قصتها معه منذ البداية وحتى الآن، حتى غدا غيث بالنسبة لطارق غنياً عن التعريف.

وبالرغم من أن غيثاً رحب بطارق ورسم البسمة على وجهه إلا أن شعوراً مزعجاً وغامضاً انتابه منذ أول لحظة رآه فيها وظل شعور الامتناع مرافق له طوال جلسته فأخذ غيث تارةً ينسب انزعاجه إلى مخالفة المرور التي جوزي بها على الطريق أثناء قدومه، وتارةً أخرى ينسبه إلى فستان منى الذي استمرت ترتديه أمام طارق رغم أنها وضعت فوقه جاكيتاً لولي اللون، وتارةً ثالثة ينسب انزعاجه إلى طارق نفسه! فما الذي أتى بطارق الغليظ هذا؟ لقد أفسد على غيث جمال الجلسة وفرصة الانفراد بحبيبته!

أجال غيث بصره في أرجاء الغرفة بينما كان طارق منشغلاً بالهاتف الذي بين يديه، فرأى صورةً لرجل باللون الأبيض والأسود معلقة على الحائط، جزم في نفسه أنها صورة والد منى وحدث نفسه: ما أتعس النساء في هذه المنطقة تضطر إحداهن لأن تعلق صورة الأب الذي افترسته الحرب أو غيبته السجون أو الغربة على الحائط حتى تكون وسيلة يتعرّف بها الأولاد على شكل أبيهم!

ثم ألقي نظرة على أم منى فكاد الإكبار يقطر من نظراته، كم تذكره هذه السيدة بنساء فلسطين الصابرات المناضلات المرابطات اللواتي يعتنقن التضحية والنضال مدى الحياة نهجاً في سبيل الأسرة والزوج والولد والوطن

ثم لفته الشبه الكبير بين ملامح منى وملامح والدتها

ابتسم في نفسه وقال: سوف تكون جميلة جداً حتى عندما تكبر!

كم يتمنى أن يحيا مع منى ولمنى حتى تصبح عجوزاً كوالدتها

كم يتمنى أن يصبح رفيق دربها يحيا ويموت بقربها

يا لآمنى التي سلبته عقله وشغلته عن نفسه!

إنه يشاقها ويتمناها ويفكر بها في حضورها والغياب.

الخميس، 15 أيار 2014

استيقظ على صوت رنين الهاتف، رفعه إلى أذنه بحركة متناقلة وقال:

- ألو

- ألو صباح الخير

- كيف حالك؟

- بخير، كيف حالك أنت؟

- بخير أيضاً، أين أنت الآن؟

- وأين يمكن أن أكون في مثل هذا الوقت؟

- هل أزعجتك؟ هل أيقظتك؟

- كلا أبداً

- إذا أين أنت؟

- أنا في فراشي البائس البارد الحزين الذي يعاني الوحدة ويشتهي من العزلة!

تبسّمت منى لهذه الكناية الطريفة وعقبت مقاطعة شكواه اللّاحة:

- أرجوك بدل ثيابك وانزل حالاً!

عرك غيث عينيه ونظر إلى الشرفة ليتأكد من التوقيت ثم طفتح الدهشة من وجهه لما تأكد أن الوقت ما

زال مبكراً جداً وقال:

- يا ساتر يا رب! خير؟! لماذا لست في مكتب الحمامة؟ أليس اليوم الخميس؟

ردّت منى:

- لا تقلق، كله خير، نعم اليوم الخميس ولم أذهب لمكتب الحمامة لقد أخذت إجازة يومية فقط!

- لماذا؟!!

- هناك مهمّة يجب عليّ أن أنجزها قبل حلول المساء، أنا انتظرك تحت بيتك، انزل إليّ لكي أخبرك عنها!

ردّ غيث بانفعالٍ ودهشة:

- وهل يمكنني أن انتظر حتى أنزل الشارع لأعرف السبب الذي دفعك للتغيب عن عملك والمجيء إلى هنا باكراً وانتظاري تحت بيتي؟! أرجوك تكلمي الآن! لا تغلقي الهاتف سوف استمع إليك ريثما أعدّ نفسي للخروج بسرعة

- حسناً، هل مازالت تسمعي؟

- بكل تأكيد تكلمي أرجوك، لقد أفلقتني حقاً!

- لا تغلق، كل ما في الأمر أنني أعرف أن المشتريات تباع في المخيمات بسعر أرخص بكثير حتى من الأسواق الشعبيّة لذلك أتيتُ أشتري بعض الحاجيات

ذهل غيث وهو يسمع جواب منى وعقب:

- حاجيات! مثل ماذا؟! ثم منذ متى كنتِ تغيبين عن عملك من أجل الشراء والتبضع؟

ردت عليه منى:

- أريد أن أشتري فراشاً مزدوجاً لغرفة نوم عروسين سوف يزفان الليلة! واه

قاطعها غيث:

- لحظة... لحظة... ماذا قلت؟ فراشاً مزدوجاً لعروسين سوف يزفان الليلة؟! أووه عزيزتي هل قررتِ أن نتزوج الليلة؟! يالها من مفاجأة سعيدة!

أغلقت منى عينيها بشكلٍ حادٍ يعبر عن امتعاضها من تعليق غيث السمج الثقيل الغليظ هذا!

وقالت له:

- يؤسفني يا عزيزي أن أخبرك أنّك لست العريس الذي سوف يزف لعروسته الليلة

فسألها:

- من سعيد الحظ إذا؟! (وأطال التتوين في آخر إذا مؤكداً عليها)

ردت منى بسرعة:

- إنهما صديقتي سارة وخطيبها

قال غيث مندهشاً:

- سارة؟! أول مرة أسمع بصديقتك هذه! من أين هبطت؟! (واعتمد هبطت بدلاً من أنت في إشارة إلى ظهورها السريع والمفاجئ) !

كتمت منى ضحكتها، وقالت:

- أين أنت الآن أين صرت؟

فأغلق غيث باب الشقة بشدة فأتى صوته كجوابٍ عن سؤالها ثم تريت لحظه، وقال لها:

- أنا افتح باب المصعد الآن، لكن قل لي، من صديقتك سارة هذه؟ وهل لديك صديقات فتيات؟ ما أعلمه أن كل أصدقائك شباب

شعرت منى بالغيظ الشديد من غير غيث، فهو مُدّ علم أن كل كادر العمل في مكتبها من الرجال ما فتئ يعبر عن امتعاضه من الموضوع بطريقةٍ أو بأخرى. تجاهلت تعليقه المستفز وتمالكت أعصابها وردّت: صديقتي سارة فتاة سورية عرفت في الجامعة معرفة سطحية درست معنا ثم عادت إلى بلادها وانقطعت أخبارها.

أتاها صوت غيث:

- ثم ماذا؟!!

- من فترة أسبوعين كلمتني زهراء أنها تحاول مساعدة شابة سورية ابنة أسرة ثرية جداً هربت مع شابٍ سوري ابن عائلة فقيرة جداً إلى لبنان بعد أن أحبته، ولكن البارحة فقط علمت أنها صديقتي سارة. عَقَبَ غيث:

- أووه كارثة! هربت معه؟!

- لا ليست كارثة هربت معه بعد عقد القران وقبل الدخول والزفاف!

عقب غيث:

- قبل الدخول والزفاف؟! كم هو مسكين زوجها!

لم تتمالك منى نفسها فضحكت من أعماقها فهذا الغيث ما برح يندبُ حظه بسبب بُعْد موعد قرّانه والزفاف ويتشكّى عند كل شاردة واردة وقبل أن تنتهي ضحكتها أتاها صوت غيث مباشرة من ورائها يقول:

- هل تهربين معي؟!

التقت نحوه بدلالٍ وأغلقت هاتفها وقالت:

- ولماذا نهرب يا خطيبي؟! لا حرب في بلادنا ولا ننتمي إلى دينين مختلفين ما يجيش أحقاد القطيع ويهدد حياتنا!

- وهل صديقتك وزوجها ينتميان إلى دينين مختلفين؟

- نعم، سارة فتاة مسيحية وابنة أسرة ثرية تعيش في المدينة، وعثمان شاب مسلم وابن أسرة فقيرة يعيش في الريف؛ تم اجتياح قريته وذبح أبناؤها بالسكاكين بينما كان عثمان خارجها فلم يجزئ على لعودة إليها ودخولها فهرب إلى المدينة حيث تقيم سارة ولما علمت بأنه ابن تلك القرية حنّت عليه ثم أحبتّه وأحبّها، ولمّا قررا الزواج نصحتها والدتها المسنة أن يهربا بحبهما من طوفان الأحقاد.

- ولماذا لم يتزوجا حتى اليوم؟

- لأنهما ما يزالان حتى اليوم يعيشان عند بعض الأقارب هي تنام في قسم النساء وهو يبيت في قسم الرجال

- قصة مؤثرة فعلاً! كيف بإمكانك أن أساعدهما؟

- تساعدهما عندما تسرع خطواتك وتساندني الآن في مهمتي

- أووه فهيمت الآن! هل قررت أن تتويي عن الضمير العالمي هذه المرة أيضاً وتقفى لوجدك إلى جانبهما؟!!

- لست لوحدي يا غيث! فهناك الكثير... الكثير من الشباب والفتيات، الشيوخ والعجائز من اللبنانيين والسوريين الذين يقفون إلى جانبهما، إلى جانب كل حبّ كحبهما
ردّ عليها غيث مازحاً!

- أين هؤلاء الكثير... الكثير؟! لا أرى إلا أنا وأنت

ردّت منى بسرعة:

- وزهراء! ثم دخلت أحد المحال وألقت التحية على التاجر فيه...

أثناء تبصّعها أخبرت منى غيثاً عن إنجاز زهراء الجبار، فقد استطاعت خلال بحث مستمر استغرق 48 ساعة أن تستأجر لهما غرفة لها حمامها ومطبخها المستقل ودفعت الإيجار مده شهر واحد مقدماً كهدية منها... ولم تكتفِ بذلك بل ذهبت مع طفلها منذ قليل إلى الغرفة كي تشرف على تنظيفها بنفسها...

قال غيث لمنى وقد أعياه كثرة التنقل بين المحال:

- تعالي نأخذ قسطاً من الراحة في بيت خالتي، لقد بدأت أشعر بالضيق والملل، لا أعرف كيف تجد النساء متعةً في التسوق

ردت عليه منى:

- حسناً وأنا أريد بعض الراحة أيضاً

صعد غيث ومنى إلى بيت خالته فاستقبلتهما أجمل استقبال ورحبت بهما أشد الترحيب ثم سألتهما:

- كيف خطرنا على بالكم؟

ردّ غيث:

- أنت حاضرة في البال دوماً يا خالتي

- الله يخليك يا غيث!

- كيفها معك عروستك؟!

- مافي زيتها عروستي!

- متى نفرح بكما؟!

- بعد العيد الصغير إن شاء الله!

- الله يسعدكم يماً

- الله يخليك

تساءلت الخالة لمن كل هذه المشتريات، وعندما أخبرها غيث أن إحدى صديقات منى سوف تزف الليلة وأن هذه المشتريات جزء من جهازهما صاحبت خالته مستنكرة:

- ولم يحلّ لصديقتك أن تتزوج إلا في هذا التاريخ ١٥ نيسان... ذكرى النكبة!!

ردّ عليها غيث ساخراً:

- لم تعد النكبة محصورة في 15 نيسان يا خالتي! فكل أيامنا نكبات!

ابتسمت منى من السخرية الكامنة في جواب غيث المضحك المبكي وتجاهلت نقد خالته وعملت على تغيير مجرى الحوار، فقالت:

- أعلم يا خالتي أن المخيمات خزانات تجارية لذلك قصدت المخيم لتأمين حاجيات العروس دون تردد

سعدت الخالة لسماع تعليق منى وقال:

- هذا المخيم على وجه الخصوص يا بنتي معروف أنه خرَّج أمهر التجار وأشطر المهنيين ومئات من المهندسين والذكاترة لكن معظمهم هاجروا إلى أوروبا يا حسرتي

- أكيد، وخاصة بعد أحداث 200٧ أليس كذلك يا خالتي؟

- أحداث عام 2007 هي أقسى أحداث عرفها مخيم نهر البارد يا بنتي، مش عارفة من وين طلعنا هناك التنظيم اللي مسمي نفسه فتح الإسلام وورط المخيم وعمله ساحة حرب، لكن ربك كبير يا بنتي طلعنا منها زي الشعرة من العجين

عقَّب غيث بسخريته المعهودة

- تهدم المخيم كله، وقضيتوا الأيام والليالي نازحين في المدارس وفي المخيمات المجاورة ومضى سبع سنين ومازال نصف المخيم لم يعاد إعمار، وبنقوليلي طلعتوا منها زي الشعرة من العجين؟

- قصدي يا بني أنه ما تورط شباب المخيم بالمعركة التي صارت بين التنظيم والجيش وأثبتت الأيام أنه الفلسطينية لي في المخيم مالهمش علاقة بالإرهاب

- الإرهاب قولتيلي؟! (أعادها غيث ضاحكاً وقد غمز منى فابتسمت في داخلها لمواكبة هذه الجودة الطيبة القلب والسيطرة اللسان للقضايا المعاصرة!)

تبسَّمت الخالة وقد أدركت ما فعله غيث لتوه وشعرت بالفخر لإثباتها جدارتها في مناقشة القضايا الساخنة، لكنَّ بهجة الفخر سرعان ما ذهبت هباءً منثوراً عندما عقَّبت على قائلته:

- والله ما فيش إرهاب إلا إلي بتعمله إسرائيل في غزة!!

قاطعها غيث:

- وفي الضفة أيضاً

قالت الخالة:

- إلي بيعملو الاحتلال وين ما كان هو إرهاب، لكن بطن الوضع في الضفة أحسن من غزّة

غزة لأنها رفعت السلاح بوج المحتل حاصرها الاحتلال، والله تعبت غزة من الحصار

عقَّب غيث:

- تجوع الحرة ولا تأكل بشيئها!

هنا انتقضت منى التي تبنت موقع المتابع للحوار بين غيث وخالته منذ البداية، وقالت:

- بل تموت الحرة ولا..... (وناب عن إكمال جملتها شموخ في حركتها وحمرة في خديها)

اخترق تعقيها أعماق غيث ولامس روحه! لقد أوحى له جوابها الحاسم والمباشر بعمق إيمانها واعتناقها لسلوك الحرة وطناً وأنثى!

سأل نفسه: هل يعقل أن تجمع كلمتان وحرف نفي صدروا عنها كل هذا الجمال والحياة والحسم والقوة والإباء؟!

أنهى غيث ومنى زيارتهما وعادا لإكمال شراء ما ينقصهما، ثم توجهتا إلى الشقة لمساعدة زهراء وطفليها في تجهيزها للعروسين. بعد أن دخلوا إلى الشقة ووجدوها قد نظّفت أثمن التنظيف، سارع غيث ومنى إلى مدّ أرضها بحصيرتين سكريتي اللون ثم وضعاً فوقها إسفنجيتين جدينتين. تعمّدت منى أن تنتقي لهما لوناً أحمر، ووضعتهما إلى جانب بعض ثم غطتهما بغطاءٍ أحمر جميل برّاق، ووضعت مسندين يليق بهما بينما علّق غيث على النافذة ستارة سكريّة شفافة تزينها زركشات حمراء، ولوحة فنّية ذات إطار مذهب على أحد الجدران أحضرها من منزل والده منى ثم وضعوا تحت اللوحة طاولة صغيرة قابلة للطوي والفتح وأسندوا عليها فازاً يحوي باقة ورود حمراء عليها كرت تهنئة بالزواج باسم الأسرة وحول الطاولة كرسيين متقابلين ثم سارعت منى إلى المطبخ ووضعت فيه بعض الأطعمة والعصائر التي تكفي شخصين ووضعت فيه عدة صحنون وأكواب وملاعق. بينما توجهت زهراء إلى الحمام فوضعت فيه سائل استحمام برائحة الورد وإسفنجة للاستحمام وربّبت جانباً بعض المناشف وأوقدت السخان ثم رشّت عطراً جذاباً في الغرفة وأطفأت الأنوار وأوقدت الشموع ونثرت أوراق ورود حمراء في أرجاء الغرفة، ثم أمسكت بيدي طفليها وعادت منهكةً لبيتها، عندئذ أمسكت منى هاتفها واتصلت بسارة وقالت:

- ألو سارة

- أهلاً منى

- كيف حالك؟

- بخير، كيف حالك أنت؟

- بخير نشكر الرّب

- ماذا حلّ بكما؟ أنا بانتظاركما أنتِ وعثمان
- الحقيقة لقد وصلنا منذ قليل إلى الشارع ولم نعرف المطعم الذي دعوتنا إليه، ولقد سألنا السكان في المنطقة ولم يعرف أحد مكانه
- أين أنتما الآن؟
- نحن بجوار مسجد يدعى مسجد الرضوان
- عظيم! انظري أمامك يوجد بناء اسمه (بناء الرضوان) هل وجدته؟
- نعم... إنه أمامي تماماً
- على سطحه يوجد باب لشقة صغيرة أمامها يوجد سجادة حمراء صغيرة جداً، تحت السجادة أضع لك مفاتيح الشقة الآن، إنها غرفة بسيطة استأجرتها زهراء لكما أنتِ وعثمان ودفعت الإيجار لمدة شهر واحد مسبقاً وقد وزعْتُ فيها بعض الفرش البسيط وهي بانتظارك لتسكني فيها أنتِ وعريسك!
- حبيبتي يا منى! حبيبتي يا زهراء!
- إنها هدية منّا للمحبين يا سارة!
- لكن هذا كثير يا منى!
- لا ليس كثيراً على الأبطال، أنت وعثمان أبطال بمعنى الكلمة! أمنتُم بالحب الشريف العفيف حين كفر به الناس، وصَدَقْتُم به حين كذبه الناس، لا أقل من هذه الهدية لكما تكون تعبيراً عن عميق احترامنا لكما ولحب الذي جمعكما!
- أشكركم يا منى
- أوصلي تحياتنا لعثمان
- أغلقت منى الهاتف وهي تشعر بسعادة ما بعدها سعادة؛ لقد ساهمت في انتصار قصة حب!
- ها هما حبيبان طيبان شريفان غفيفان على بعد خطواتٍ من الاجتماع والانصهار في بوتقة الحب!
- نظر غيث إلى منى والرغبة تلتهب بداخله! يا لها من إنسانة محبة للناس تحب الحب وتسانده!!
- قال لها:
- متى نجتمع لوحداً في بيتنا يا مناي وننصهر سوياً بين العطور والشموع والورود؟

وضعت منى أصبعها على شفتيها في إشارة تقول لغيث (أرجوك التزم الصمت)
نزلت مني وغيث على الدرج مشياً على الأقدام بينما سمعا صوت سارة وعثمان يصعدان بالمصعد إلى
عشهما الجميل.

18 أيار 2014

انحنت منى لترفع الأكياس التي أنزلتها من السيّارة، فتأرجح العقد الذهبي في جيدها، وتلألأت الماسات التي زينت اسمه (غيث)، الأمر الذي ضاعف جمالها وجاذبيتها في عيني غيث! لطالما ذهل بجمالها وبسحر حركاتها وسكناتها! ثم تبسّم عندما تذكّر صورة خالته البارحة وهي تلبسها هذا العقد كم بدا عليها تصنع الفرحة! وكم سعت لإثبات وجودها عندما مارست دور "الحماية" بالنيابة، فأخذت توجه منى ونقص عليها الأخبار والقصص التي تبين سوء معاملة الزوجات اللبنانيات لأزواجهن مقارنة بمعاملة الفلسطينيات في محاولة ساذجة منها ومكشوفة لإفهام منى أن عليها أن تلتزم بالعادات والتقاليد الفلسطينية وخاصة المتعلقة منها بإدارة الأسرة ومعاملة الزوج وأنّ هناك من يتابع معاملتها لزوجها ويرصد ويوتّق!

سارع غيث إلى منى ليساعدها في حمل الحاجيات وتعمّد مسك يدها بدل مسك الأكياس ممثلاً الخطأ في ميّته! ذلك السلوك الذي أزهّر بسمه على شفتي منى شوقاً للمزيد من الاقتراب في داخله هو! سحبت يدها وقالت له مازحةً:

- احم... احم... حماك تقف إلى جانبنا يا دكتور! احذر غضبها!

تبسّم لها غيث وقال مازحاً:

- آه حماي؟!... كله إلا غضب حماي!

سمعت الوالدة الحديث الدائر بين منى وغيث، وقالت:

- أخبر خطيبتك يا بني أن حماك راضية عنك

عقبت منى مداعبةً والدتها وغامرة غيث:

- نسيت أمي أنني ابنيتها أصبحت خطيبتك! بينما غدوت حضرتك ابنها!

ضحك غيث، وقال:

- الله يطول عمرها أجلي أم!

وبينما نادى الوالدة سعيداً وزيداً لكي يحملها معها بعض الأكياس إلى الدّاخل كانت زهراء تقف خلف الجميع تحاول إخراج أحمالها من السيارة أيضاً. وزهراء منذ ذلك الصباح المشؤوم وهي حبيسة البيت -لم تغادره إلا

لإعداد بيت ساره وعثمان - ويمكن القول إنها حبيسة غرفتها يسكنها الاكتئاب يقات معها بل ويققات عليها! ولقد انعكس اكتئابها انعداماً في الرغبة بالأكل وشعوراً مزماً بالإرهاق والتعب!

لكنّ إصرار غيث ومنى اليوم لم يدع لها مجالاً ودفعها للخروج معهم إلى دار الأيتام علّها تغادر الأسى وبغادرتها. فلقد دأبت منى ووالدتها من اندلاع الأحداث الأليمة وتدفع اللاجئين السوريين إلى لبنان على زيارة هذه الدار المستضيئة للأيتام مرّة كل شهرين، مستغلين القرابة التي تجمعهما بصاحب الدار وحاملتين معهما الفرح للأطفال المتواجدين فيها.

إذ لطالما كانت والدّة منى سيدة جادة هادفة في حياتها وناشطة على مستوى أصدقائها والعائلة، تحرص على حضور اجتماعات السيدات ولقاءاتهن الصباحيّة، وتعمل على حل المشاكل وإصلاح البين وتبحث على أفعال الخير وعلى التبرع بالفائض من كل شيء ثم تقوم بمساعدة ابنتها بتنظيم التبرعات وفرزها فترتب التبرعات العينية وتجمع التبرعات المالية وتشترى حاجيات للأيتام؛ فلهذا الطفل حذاء، ولذلك قبة، وللآخر قميص، وللرابع معطف ولغيرهم دفاتر وأقلام.... تشتري وتحسب وتسجل وترتب وتكمل النقص وتصلح... ولم يمنعها المرض من متابعة نشاطها بل لطالما قاومت المرض بزيادة العمل والنشاط! وها هي اليوم تدخل الدار لتعدّ يوماً مبهجاً لأربعين يتيماً بعد أقل من شهر على مغادرتها المشفى....

دخلت الأسرة المطبخ حيث يتم إعداد الطعام لكل سكان الدار، بعد أن رحب بهم قريبهم صاحب الدار وعرض عليهم المساعدة لكنهم شكروه وأكّدوا على ضرورة أن ينهي أعماله وأن يأتي لتناول الغداء معهم ومع الأيتام في الدار

وضعت كلاً من منى وزهراء الإزار وبدأتا مع العاملة في الدار إعداد الطعام تحت إشراف الوالدة وبمساهمة مريكة من زيد وسعيد! فلقد حرصت الأسرة مسبقاً على تقديم أطعمة متنوعة؛ ففي الوقت الذي سارعت منى لتعد اللحوم متمثلةً بالدجاج المحمّر سارعت زهراء لتعد السلطات والأرز فحالة زهراء النفسية أورتتها مقتاً ونفوراً من رؤية اللحم أو طبخه أو أكله، لا تعرف لماذا تذكرها اللحوم بإجرام البشر؟! كم تستبجح فكرة أن يذبح الإنسان حتى لو حيواناً ويسفك دماً ليأكل!

وفيما كانت الفتيات في الدّاخل يجهزن طعام الغداء وقف غيث عند باب المطبخ وسألهن:

- هل يمكنني المساعدة أيتها الكريمات؟!

رّدت عليه منى مازحة:

- المساعدة؟! هذا مطبخ يا دكتور! وليس قاعة محاضرات!

قال لها غيث:

- وهل تعتقدين أنَّ العمل في المطبخ يا سيدتي يختلف عن العمل في قاعة المحاضرات؟! العمل هو العمل... والعمل أياً كان يحتاج إلى ذوقٍ ومهارةٍ وإعداد مسبقٍ وإتقان وإخلاصٍ

ثم سواء كنت في المطبخ أم في قاعة المحاضرات فأنتِ تعدينِ الغذاء! فغذاءُ الجسدِ الطعامُ وغذاءُ العقلِ العلم ولا تستقيم الحياة إلا إذا استمد الإنسان الغذاء المناسب لكليهما

قاطعت منى غيثاً الذي ظن نفسه يلقي المحاضرة فعلاً في قاعة المحاضرات عن الغذاء وأنواعه قائلة:

- إذاً لكي تستقيم حياة الأطفال في هذه الدار هلاً ساعدت زيداً وسعيداً في نقل الصحون إلى طاولة الطعام؟!!

في هذه اللحظة فاجأ صوت طارق غيثاً يقول:

- أنا هنا... لقد وصلت.... هذه أكياسك التي نسيتهما ست منى

صاحت منى:

- أهلاً طارق وصلت في الوقت المناسب!

ألقي طارق سلاماً واحداً على الجميع وتوجه نحو منى تاركاً غيثاً خلفه... اقترب طارق من منى أزعج غيثاً كما أزعجه ظهوره المفاجئ، لقد صرَّح البارحة أنه لا ينوي الذهاب إلى دار الأيتام فما الذي غيَّر رأيه الآن؟ وما هو الشيء الذي يزعجه كلما رآه! اقترب طارق من منى يذكره بشيءٍ مبهم غامض مقلق نوعاً ما! لكن ما هو؟ وقبل أن يكمل غيث الأسئلة في رأسه قاطعت منى محاولة الذكرى لديه وقالت:

- تفضّل يا دكتور، ورّع هذه الصحون على الطاولة!

تبسّم لها غيث وقال:

- أمرك يا ست الكل...

ساهم الجميع في إعداد غداء مميز ثم غيروا ملابسهم واستعدوا لإدخال الأطفال على المائدة، انبهر الأطفال بأصناف الطعام الموزعة وجلست والدة منى على رأس الطاولة تكريماً وإلى جانبها قريبها صاحب الدار الذي وفى بوعده وحضر لتناول الغذاء في الوقت المناسب بينما سارعت منى وزهراء والمشرفة النفسية والعاملات في الدار إلى سكب الطعام وتلبية حاجات الأطفال، وبعد الانتهاء من تناول الطعام كان غيث وطارق -بالتعاون مع سائق سيارة الأجرة الذي هبّ لنجدةهما في نفخ الألعاب الهوائية- قد انتهوا من إعداد

الساحة للأطفال... فانطلق الأطفال إلى الساحة يضحكون ويلعبون. وبينما كانت منى تنتقل بكل فرح وحبٍ ورشاقة بين الأطفال ثقيل هذا، وتلاعب هذا، تركض وراء ذلك، وتحمل تلك، جلست زهراء واضعة طفلة معوّقة في حضنها، تداعبها من جهة وتمطرها بالقبلات المبللة بالدموع من جهة أخرى وبينما كانت على هذه الحالة استطاعت زهراء أن تتذكر أنها رأت هذه الفتاة من قبل! نعم رأتها في تقرير متلفزٍ عرض على إحدى الفضائيات بمناسبة يوم اليتيم العربي الذي يصادف الجمعة الأولى من شهر نيسان! نعم إنها نفسها... إنها الإعاقة نفسها واليد المبتورة نفسها والعيون الواسعة الحزينة نفسها والنظرات نفسها إلا أن منسوب الألم في نظراتها أقل! ولكن ما التغيير الذي طرأ عليها؟ إنها تبدو أهدأ وأقل عدائية بكثير مما كانت تبدو عليه أثناء إعداد التقرير، فلقد ذكر التقرير أنها وُجِدَتْ على الحدود السوريّة اللبنانيّة التي تجاوزتها بطريقةٍ ما لوحدها رغم أنها كانت مريضة وهزيلة ومشرفة على الموت!

وفجأةً اقتربت المرشدة النفسية المشرفة على الدّار من زهراء، وقالت لها:

- لا بدّ أنّكِ صاحبة قلبٍ أبيضٍ وروحٍ جميلة

رُدّت عليها زهراء:

- أشكركِ على هذا الإطراء

- لا ليس إطراء! هذه الحقيقة! فالأطفال هم أكثر المخلوقات قدرة على سبر أغوار الإنسان، يستطيع الطفل في نظرةٍ واحدة أن يستشعر دواخلنا! ولولا أنك صاحبة قلب طيب وأعماق مريحة لما اقتربت هذه الطفلة منك

تبسّمت زهراء وقالت:

- في الحقيقة أنا التي اقتربت منها وضعتها في حضني وليس العكس!

- كثيرون قبلك يا سيدة زهراء حاولوا لكنها كانت تمنعهم وبشراصةٍ متفاوتةٍ من الاقتراب منها أو وضعها في حضنهم! لقد وصلت إلينا شديدة العدائية، عصبية لدرجة هستيرية لكنها هدأت مع الوقت وبعد الدعم النفسي والمتابعة.

- وهل عرفتِ سبب عدائيتها؟

قالت المرشدة وقد رسمت بفمها أمارات الأسى والحيرة:

- الحالات التي عاينتها والتي كانت قريبةً من حالتها كان سبب عدائيتها عيشها في الشوارع بلا أهل أو غذاء بالإضافة ما تعرضوا له في الحرب!

- هل تعنين أن أهلهم ماتوا ولم يبقَ أي قريبٍ حولهم؟! كيف يعقل ذلك؟!

- هل تصدقين إذا أخبرتك أن أهلهم قد يضطرون إلى رميهم في الشارع؟ لقد سمعت في المناطق المحاصرة أن بعض الأطفال الرضع ماتوا بسبب جفاف الحليب في صدور أمهاتهن وأن بعض الأسر اضطرت إلى رمي أطفالها في الشوارع عسى تلتقطهم جمعيات الأطفال وتتمكن من العناية بهم!

ردّت زهراء بكثير من الاستهجان والأسى:

- أي منطقي هذا؟! كيف يعقل أن يرمي الآباء أبناءهم؟!

- إنها الحرب بكل ما فيها من حقارةٍ وإجرام، تحطم المنطق والعقل تحت مطارق الاضطراب والضرورة عَقِبَت زهراء:

- لكن الخبر السار أنها تحسّنت سريعاً وهي بخير!

فتبسّمت المرشدة وقالت:

- أبدأً لم يكن تحسّنها سريع! ربما أنتِ اعتقدته سريعاً لأنك رأيتِ التقرير الشهر الماضي لكنه تقرير يعرض تسجيلات وصور لها قديمة منذ شهورٍ سبقت... ومع ذلك قبولها أن تجلس في حضنك جعلني أجزم أنها تحسّنت كثيراً، نظرت زهراء إلى عيني الطفلة وسكبت فيها أطناناً من مشاعر الحب الممزوجة بالشفقة ثم شدتها إلى حضنها وغمرتها بالاحتواء الدافئ وطبعت قبلة طويلة على جبينها! بعد لحظات أخرجت الفتاة رأسها من حضنها ونظرت إليها بعينين بريئتين فتحت فمها وقالت:

- مَ..... مَ..... ماما!

في نهاية الزيارة وزعت الوالدة الهدايا على الجميع ثم انصرفت الأسرة عائدة إلى البيت بعد أن زرعت البهجة في صدور الأيتام وحولت يومهم إلى عيد حقيقي.

دخلت الأم إلى غرفتها تسارع لأداء الصلاة وشكر الله الذي جعلها سبباً في إسعاد الأطفال الأيتام، ودلفت زهراء مع أطفالها إلى غرفتها منهمكة وهي تفكر أي عالمٍ مربعٍ ومستقبلٍ قاسٍ ينتظر هؤلاء المساكين، بينما دخلت منى مع غيث إلى غرفة الضيوف ولما اقتربت من باب الغرفة وأمسكت القبضة تريد أن تغلقه تقاجأت بغيث أتى وراءها وضمّها من خلفها بشدةٍ وقال:

- كم كنت شهيةً هذا النهار؟!

شعرت منى بالصدمة، بل بالحياء الشديد، لقد باغتها سلوكه، ها هي الدماء تتدفق بسرعة تتسابق لترفع حرارة خديها وأذنيها. إنها تشعر بأن أنفاسها خطفت فجأة وتوقف كل ما فيها عن الحراك! تجمّدت في مكانها فأحكم إحاطتها بين ذراعيه وشدّها إلى أحضانه أكثر وقال:

- كم أحبك!

شمّ عطرها بشغف، ثم غرق فيه، أدارها إليه فغسلها بفيض نظرات حبه، وقال لها:

- ما أروعك! ما أروع حضنك لو تعلمين كم أشتاق إليك! كم حلمت بهذه اللحظات!

أردت أن تفتح فمها فتردّ عليه فعجزت وازدادت حمرة شفتيها الأمر الذي أغرى غيثاً بتقبيلها من شفتيها، ولما اقتربت أنفاسه من وجهها أكثر، انسحبت من بين ضلوعه وابتعدت!

سألها مستغرباً:

- لماذا تبتعدين؟!

التزمّت الصمت!

قال لها غيث:

- خطبة من أهلك وقد خطبتك! عقد قرآن عند الشيخ وقد عقدنا! أنت زوجتي!

ردّت عليه بحسم:

- ليس بعد!

- بلى أنت زوجتي يا منى ولا توجد قوة في العالم تستطيع إبعادك عني....

قالت مقاومةً المناخ الملتهب الذي خلقة شوقه وسلوكه ومشاعره:

- هل تشرب العصير؟!

لم تنتظر حتى رده! فتحت باب الغرفة وخرجت منهيةً بحسم ما بدأه غيث، إذ لم تتوقع منه هذا السلوك الحميمي المبكر!

هي التي لم تسمح لأفكارها بعد أن تجمعها به في موقفٍ حميميٍّ فيه القبلة والخصن ولواحقهما، ولما شاهد غيث سرعة خروجها من الغرفة وتغييرها الحاسم للموضوع لم يفهم سلوكها أليست هي التي قبلت البارحة وأعلنت موافقتها عند المأذون أن تصبح زوجته؟! مالها تنتكر له اليوم؟!

قطَّب حاجبيه ثم ابتسم في صدره وقال: يا لها من قوة؟!... ولكن أين المفر؟!... مصيرها أن تعود إلى أحضاني فتسكنها!

في هذه الأثناء كانت قمر تكاد تقفز فرحاً، ها هو الهاتف الذي وعدها به بسام ماثلاً بين يديها! ها هو بسام يقف إلى جانبها بكلِّ محبةٍ وسرو يعلمها كيف تشحنه وكيف تفتحها، كيف تجد الروايات المحملة فيه وكيف تستخدم تطبيقاً لتعليم اللغة الإنكليزية والفرنسيَّة، وكلِّما شرح لها بسام أكثر كلما اتسعت عينها وازدادت بهجةً أكثر، وكلما ازدادت بهجتها أكثر كلما ازدادت بهجته أكثر.

بسام بدأ يدرك تماماً أن قمر من أهم العوامل التي تعينه على الصبر وتخفف عنه في أرض الحزن هذه! وأنَّ جمالها البريء وسعادتها الناتجة عن أبسط النعم من أجمل الأدوية المضادة لقيح الحرب المحيطة به. نظر صخر إلى بسام وقمر وقد رصد التفاعل الدافئ بينهما بعين الأب المراقب والمتفهم ثم غمز زوجة الطبيب بإحدى عينيه وأشار لها بحركة من رأسه وحاجبيه أن تنتظر إليهما ثم قال:

- حقيقةً إنني أتعجب منه! فيسام كصحفي ميداني يعمل لأول مرة وسط مناخ يدفعه للتوتر والانفعال إلى الحد الأقصى كيف باستطاعته أن يتجاوز كل ذلك في لحظه عندما ينظر إليها!

ضحكتُ زوجة الطبيب ضحكةً حصرتها بينها وبين صخر ثم قالت له:

- فعلاً لقد أصبح من الواضح جداً تأثير قمر في تعديل مزاج بسام ورفع معنوياته بل وزيادة مناعته ضد الأهوال التي يعانيناها! انظر إلى هذه البسمة المشرقة التي اقتحمت وجهه المرهق وهو يحادثها ويقف إلى جانبيها!

نظر صخر إلى زوجة الطبيب وقال لها مماًزحاً:

- هل تفكرين بما أفكر به؟!

أدركت زوجة الطبيب المعنى الذي يلمح له صخر فردَّت عليه باسمه:

- اعتقد ذلك يا صخر!

وانسحبت من الغرفة.

3 حزيران 2014

مَدَّ ذراعَه على كتفها واقترب منها وهو يستمع إليها بكامل جوارحه بعد أن جلس إلى جوارها جلسة الصديق المواسي لصديقه الذي يقول له (أنا معك ومهتم بقولك) لكنَّ عطرها تغلغل في خلاياه وشغل عقله وتفكيره، عمل جاهداً على تجاهل تأثير عطرها عليه كحبيب وممارسة دور الصديق فقال لها مماًزحاً:

- حَدَّثْ جَلِّ!! لقد بات من المسموح لي أن أضع ذراعي على كتفك والجلوس بشكلٍ ملاصقٍ لك دون اعتراض منك؟!

نظرت إليه مبتسمةً وقالت:

- ولماذا أعترض؟! وهل تعترض إحداً على جلوس خطيبها بالقرب منها؟

قاطعها غيث معاكساً: تقصدين زوجها!

رَدَّت: خطيبها!

فتح غيث عينيه وفمه معاً وقال متصنعاً الدهشة والذهول:

- وتجاوزين أيضاً؟! وتبتسمين؟! ما هذا التطور كله؟!

قَطَّبَتْ منى حاجبها وعَقَّبَتْ:

- نعم، أحاور وأبتسم! بالرغم من أنني صرت أُخْبَذُ الصمت مؤخراً وبالرغم من أن إجاباتي تقتصر على

(نعم ولا) إلا أنني أستقيض في الحديث وأبتسم معك

- أووه.... حَدَّثْ جَلِّ ثانٍ.

- أرجوك يا غيث! أنا لا أمزح! ولا مزاج لدي يمكنني من احتمال مُزَاجِكَ! فنحن نمر بظروف عصيبة

جعلتني في حالةٍ يرثى لها!

- تفرحني ابتسامتك الحصرية لي يا مناي لكن يؤسفني حزنك وانطفاء رغبتك بالكلام! أنت يا مناي قوية

وإدمان الحزن والتزام الصمت سمة الضعفاء، عموماً لا أدري ما هي هذه الظروف التي جعلت حالتك يرثى

لها؟

سأل غيث سؤاله من باب الحديث بقصد مشاركة الهمّ وتخفيف الألم فقط! فهو يعلم تماماً ما هي هذه الظروف وهو يعلم أنها ظروف قادرة على فعل ما هو أسوأ من ذلك، فلقد أسرّت له خالته اليوم صباحاً حديثاً قالت أنه متداول بين نساء المخيم يقول أن تاجر العطور حيث بدأت زهراء العمل عنده منذ خمسة أيام فقط قد صرفها من عملها! لأنّ زوجته علمت من زوجة تاجر الورد حيث كانت تعمل زهراء سابقاً أن زهراء امرأة ×××× (كلمة تصفها بأنها امرأة ساقطة)، وقد لاحظ تاجر الورد عليها بعض السلوكيات المريبة إلا أنه كان يغض البصر لأنها ما زالت شكوكاً وحرصاً منه على مصلحه طفلها ولكنه عندما تجاوزت الزهراء الخطوط الحمراء اجتماعياً ودينياً وأخلاقياً وراودته عن نفسه طردها مباشرة ودون تردد... ولم تنس خالته في هذه المناسبة أن تمطر غيثاً النصائح التي تحثه على بحث موضوع خطبته ثانية وإعادة النظر في قصة ارتباطه بمنى خاصة بعدما كشفت الأيام سوء زهراء! ولا بدّ أن ابنة خالته تشبهها بطريقة ما.

في الوقت الذي لم يهتم غيث بهذه النصائح (القيمة!) المقدّمة من قبل خالته (الزّووم)! إلا أنه صُعب بخبر الإشاعة التي انتشرت عن زهراء! فهو الذي يعرف جيداً أن زهراء أبعد ما تكون عن المرأة الساقطة وقد رأى بأنّ عينه أنّ السقوط محله ذلك التاجر عديم الضمير لكنّها ضريبة العيش في مجتمع ذكوري جاهل ومتخلف، يرى الرجل يذنب فيلتبس له ألف عذر، ويرى شبهة ذنب عند المرأة فيتهمها ألف تهمة.

قاطعت نبرة صوت منى العالية والمحتدة تحليلات غيث المتفاعلة داخل رأسه وكرّرت بضيق:

أنتِ قوية! أنتِ قوية! وهل القوية بلا مشاعر أو أحاسيس؟ إذا كانت قادرة على إخفاء مشاعرها فهذا لا يعني أنها بلا شعور، ثم منذ متى كان إيمان الحزن والتزام الصمت سمة الضعفاء؟! إنها -على الأقل- في زماننا هذا سمة العقلاء!!

نظر إليها غيث وقد دُهِش فعلاً بعمق فكرتها وقرر الإنصات وحسب لكن منى تابعت حديثها دون أن تنتبه لدهشته:

- قل لي كيف لا أدمن الحزن وإشاعات قبيحة أخذت تنشر عن زهراء؟ كيف لا أدمن الحزن وهذه المسكينة المريضة لا تجد عملاً تؤمن فيه لقمتها ولقمة طفلها؟! كيف لا أدمن الحزن وأخبار القتل والهدم والقصف لا تنفك تباغتتنا صباحاً مساءً في بلد أحوالي وأمي؟! كيف لا أدمن الحزن وأ... أخ... وأخي.... تسلفت تلك الغصة حجرة منى من جديد لتقف حاجزاً صخرياً أمام تدفق الكلمات وأمام انهيار نفسياتها!

لم يتفاجأ غيث بحجم الألم الذي يتفاعل داخلها والذي لمسّه في تضاريس كلماتها لأنه يعلم أنّها آلام تعجز الجبال عن حملها... لكن لا حلّ أمامه إلا بتحجيمها والتحايل عليها، لذلك عند هذه اللحظة بالذات تنازل

غيث عن دور الصديق الجالس إلى جوارها وتبنى موقف الحبيب عندما التفت تماماً قبالتها ونظر في عيناها وخاطب الحبيبة بدل الصديقة فيها قائلاً:

- مشكلتك يا منى قلبي أنك عميقة! عميقة النظر والإحساس والتفكير ووجودك في بلد ينعم بالعلم في الوقت الزاهر لم يمنحك من رصد الألم والتفاعل معه في أعماق الوافدين من بلاد الحرب!

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه الآن هل فكرت طوال فترة خطبتنا أن تمنعني النظر في أعماقي أنا؟ لو تعلمين كيف جمّل وجودك أعماقي، لو تعلمين كيف فرش وجودك أعماقي بالحب وزينته بالعشق، أناره بلهب الرغبة، كلله بالشوق المتقد! وما هي أعماقي تتاديك تستجديكِ منذ شهور!

فتح غيث ذراعيه فجاء الحدث الأجل! رمت منى نفسها إلى حضنه فاستقبلها بين ذراعيه وجسده وفي الوقت الذي أخذت منى تستمد من حضنه القوة التي كادت تتطفي وتخبو بداخلها... أخذ غيث يرويها طاقةً ومردداً.... فالحضن هذه المساحة الضيقة الواسعة، الهائلة الماتعة، الثائرة الوداعة قادرة على خلق أجمل تلاقٍ بين جسدين وأروع التحام بين روحيين!

إن حضناً واحداً يمكنه أن يمحي شهوراً من الأحزان والأشجان وأن يلبس جراحات الأرواح والأبدان! أرسلت منى سمعها تنصت لحوار الحب بين نبضه وصدرها بلا كلمات، بينما أرسل غيث يده تمسح على رأسها تداعب شعرها ورقبتها ثم تابع نزولاً يتحسس جسدها وغدت لمسائه تغذي أحاسيسه وتزيد انقاد النار داخله.

يا لجمال الاقتراب حين تنتهي المسافات وتنعدم المساحات وتتوقف الدقائق واللحظات ويذوب الجسدان في كلٍ واحدٍ على نار الحب والرغبة! مدّها بالكثير من الدّفء في عناقه الطويل وأقبل يلتهم شفيتها ويرشف رضاب ثغرها وقبل أن يغرقا سوياً في بحر المتعة الذي بدأ يجرفهما انتزعت نفسها من حضنه وتمنّعت! في هذه الأثناء وفي الدولة المجاورة كانت قمر التي استبدت بها نوبة بكاءٍ مسعورة لم تعرفها منذ أكثر من شهرين قد أنهكت تماماً ونامت!

سأل بسام زوجة الطبيب: ما الذي حدث لها؟!

أجابته باستغرابٍ ممزوج بالقلق والإعياء:

- لا أعرف ماذا حدث لها! كل ما أعرفه أنها دخلت بعد تناول الطعام عند الضحى إلى سريرها تريد أن تقرأ وبعد حوالي ساعة واحدة دخلت عليها فوجدت النحيب قد انطلق والدموع قد هطلت ولمّا سألتها ما بك؟ لم تجبني، رَمَتْ الهاتف جانباً وضمت الوسادة واستمرّت تبكي وتبكي حتى نال منها التعب والإعياء!

- ماذا كانت تقرأ؟

- ما بك؟! إنها تقرأ "لفيكتور هوغو"!! لقد قالت إنها تابعت قديماً فيلماً كرتونياً عن "أحدب نوتردام" لذلك حمّلت الرواية واطلعت عليها، ثم شوّقتها هذه الرواية لقراءة المزيد فقرأت "البؤساء" هل نسييت عندما قالت أمامنا أنها تشعر بشبه ما يجمعها بشخصية كوزيت فلو كانت طفلة لكانت الآن تعمل ربما خادمة في إحدى المؤسسات أو البيوت لكنّ القدر رَحَمَهَا، فمن جهة لقد عاشت مع والدتها وكل أسرتها أكثر بكثير من كوزيت ومن جهة ثانية سرعان ما أرسل لها القَدَرُ (جان فالجان) زوجي: ليسكنها في بيته ويربّيها كأنها ابنته!

- نعم...نعم تذكرتُ لكن اليوم بالذات ماذا تقرأ؟ أي رواية بالتحديد؟

- لقد سمحتُ لنفسِي أن أنظر إلى هاتفها وكان عنوان الرواية التي تقرأ فيها (ملائكة بين اللهب) أو هكذا اعتقد

فتح بسام فمه ورمش مرتين وقال مستغرباً:

- ملائكة بين اللهب؟!

- نعم، هل أنا مخطئة في العنوان؟

- كلا لم تخطئي، ولكن الآن اتضح لي سبب بكائها وإعيائها

- لم أفهم، كيف اتضح لك ذلك؟

- رواية ملائكة بين اللهب تحكي قصة أم خطف جنودٌ أطفالها أثناء الثّورة الفرنسية بعد أن استعزّ الاقتتال بين الملكيين والجمهوريين، فتهم هذه المرأة في الوديان والتلال باحثة عن أطفالها حتى تجدهم وسط دائرة واللهب يحيط بهم من كل مكان!

صاحت زوجة الطبيب:

- يا للمصادفة الكارثية الأليمة! لا بدّ أنّ الرواية ذكرتها بمشهد موت أسرتها حرقاً، المسكينة قمر حتى الروايات القديمة تتكأ جراحها!

عَقَبَ بسام بأسف:

- تصوري أن هذه الرواية التي جرت أحداثها في الثورة الفرنسية أي قبل أكثر من 200 سنة قد انتصر فيها الضمير والحس الإنساني على صراع الأحزاب والاقتيال!

قالت زوجة الطبيب متسائلة:

- بمعنى؟

- بمعنى أن هذه الرواية تصف مشهد إنقاذ الأطفال من وسط نيران اللهب بعد أن كادوا يموتون حرقاً وبعد أن كادت تجن أمهم عليهم! والغريب أن الشخصية التي أنقذتهم هي الشخصية الشريرة أصلاً إلا إنها رغم شرها لم تتمكن من ترك الأطفال لمصيرهم المروع

- يا حسرة على البشرية يا بسام! لم تزد إلا تغولاً ووحشية!

- بالضبط هذا يقيني يا سيدتي. انظري إلى الحرب الدائرة هنا؛ آلاف بل عشرات الآلاف من الأطفال يموتون جوعاً وحرقاً وغرقاً وقهراً واغتصاباً دون أن يتحرك أحد لإنقاذهم

في هذه الأثناء دخل صخرٌ والشحوب بادٍ عليه، سألته زوجة الطبيب: ماذا بك؟ ما الخطب؟

ردَّ عليها صخر: يوم فظيع حقاً!

عقب بسام: إنه كذلك فعلاً! ولكن هل من جديد؟

- هناك أخبار أوليه سيئة للغاية!

- كل أخبارنا سيئة للغاية صخر، لكن ما الجديد؟

- راشد عباس الشاب الذي يعمل مسعفاً في المشفى...

- ماذا به؟!

- لقد خُطف

صاحت زوجة الطبيب: ماذا تقول؟!

قال صخر:

لقد خطف وهناك تسجيل مصور يطالب فيه الخاطفون بفدية خيالية مقابل إطلاق سراحه!

- فدية؟!

- نعم، وفي حال لم تؤمن لهم هذه الفدية خلال فترة معينة فإنهم يهددون بذبحه!

شُحِبَ وجه زوجته الطبيب وانصدمت بهذا الخبر المقيت الجديد فراشد عباس هو حبيب إحدى الممرضات المتطوعات في المشفى الميداني تحت إشراف زوجها، ولطالما شعرت أن حباً طيباً ينبعث منهما يضيء بعض النور على ظلمات القتل التي تنقل إلى المشفى، ولطالما كان راشد نعم الشاب الخلوq الذي أحبّ فكتم فلما غدت لوعات حبه أثقل من أن تخفى صارح زوجة الطبيب بحبه لنغم وطلب منها أن تسألها (هل يمكنه أن يتقدم لطلب يدها من أسرتها؟) لكنّ المفاجأة كانت أن نغم كانت تحبه وتعرف بحبه دون أن يصارحها به.

ازدردت زوجة الطبيب ريقها وقالت:

- هل علمت نغم بالأمr؟

- نعم علمت فالتسجيل منشور على وسائل التواصل الاجتماعي ورآه الجميع

- وكيف تركتها؟

- يكاد يغمر عليها.... تهذي وتبكي وتنتحب

هنا تقدّم صخر من بسام المتفاجئ المصدوم الصامت وقال له:

- بالمناسبة القناة تعرض علينا الخروج بسلام من هنا بأسرع وقت ممكن، وهي ترى أنّ في استمرارنا بالعمل تعريض لأرواحنا لخطر محقق. إنّ معظم القنوات الإخبارية العالمية أحجمت عن إرسال مراسيلها وصحفيها لتغطية البؤر الساخنة هنا.

ردّ بسام بهدوء وبدون تفكير:

- إذا كنت تريد الخروج يا صخر فاخرج بالمنطقة أصبحت خطرة جداً جداً، لقد رَمَتْ البشريّة غيلانها هنا وتعامت عن فضائهم وجرائمهم، أمّا بالنسبة لي فلن أترك المدنيين تحت رحمة القصف والقتل والحرق والتجوع والاختطاف والاعتقال دون أن أساهم على الأقل في نقل معاناتهم للعالم الحر.

تبسّم صخر بسمة السخرية وقال:

- بسام! وهل تظنّ أن هذا [العالم الحر] الذي نتحدث عنه ما زال موجوداً؟ وإذا كان موجوداً هل ما زال قادراً؟! أنا بالنسبة لي لقد بدأت أشك؟!

في هذه الأثناء فتحت قمر باب الغرفة مشّت باتجاههم شديدة الشحوب متهاكة تجرّ قدميها جرّاً والدمع يأكل حدقتيها... تقول بصوت المتسائل:

- راشد عب عبّاس؟! ن..... نغم؟!

وقبل أن تصل إليهم انهارت ككومة ركام على الأرض!

نَجَتْ

الأحد، 29 حزيران 2014، أول أيام رمضان المبارك

اقترب صخرٌ من بسام وقال له بصوت منخفضٍ حذرٍ أقرب للهمس:

- هناك شيءٌ مريبٌ أريد أن أبخّثه معك يا بسام

ردَّ عليه بسام وقد أثارت جملة القلق في أعماقه:

- ما الخطب يا صخر؟ لقد أقلقنتني!

نظر صخر حوله بعينه تقفزان يميناً وشمالاً تفحصان المكان وتتأكدان من خلوه ثم قال:

- أشعر بأننا ملاحقان ومستهدفان!

تفاجأ بسام، صدمه هذا الجواب الغير متوقع ثم علَّت ضحكات ساخرةً منه وقال:

- وهل عندك شك؟

أبدى صخر انزعاجاً من ضحكات بسام واستهزائه بقوله، عقد حاجبيه وتابع بكل اتزان:

- أقول إننا نحن الاثنين بالذات مستهدفان!

ظهرت على ملامح بسام الجدية وقال:

- تقصد أن هناك من يترصدنا بهدف قتلنا وتصفيتنا؟

- نعم

- وما الذي دفعك إلى هذا الاعتقاد؟!

- راقب ماذا حدث لنا مؤخراً؛ في البداية خطف (راشد عبّاس) الذي كان مسؤولاً عن معالجة جراحنا في

حال أصبنا، ثم استهدف بيت الطبيب الذي كنا نمضي معظم أوقاتنا فيه ونلجأ إليه كل وقتٍ وحين وبیت

جاريه فقط، لولا المعلومات التي أتتنا بضرورة إخلاء المنطقة قبل نصف ساعة لكننا قتلنا جميعاً. ولما انتقلنا

إلى هذه المنطقة وبعد استقرارنا هنا بأسبوعين أصبحت المنطقة عرضةً للقصف المتقطع المفاجئ، رغم

أنها لم تقصف من قبل!!

- حسناً، ماذا في ذلك؟ نحن نعيش في منطقة حرب واقتتال، لا أدري ما هو الغريب في الموضوع؟

- الغريب أن القصف يلاحقنا! هناك من يعيش بيننا ينقل تحركاتنا بقصد تصفيتنا!

جحظت عينا بسام وقال مستغرباً:

- ومن تراه هذا الجاسوس؟

- أشكُ بشخصٍ معينٍ يا بسام

- من هو؟!

- ربما.... أقول ربما هي قمر يا بسام!

صمت بسام عندما سمع اسم قمر، احمرَّ وجهه وكظم غضبه وقال محتدأً بعض الشيء:

- أنت متعب يا صخر

- لا لسئ متعباً مطلقاً

- إذاً هو تأثير الصيام عليك

- إنه أول يوم في الشهر الفضيل، والصيام عموماً لا يفقدني تركيزي

- إذاً ما مشكلتك اليوم؟

- إنها مشكلتنا وليست مشكلتي يا بسام! هذه المشكلة بدأت وانطلقت بعد أن أحضرت الهاتف لقمر

- ماذا تقصد؟

- أقصد أنني لم أرتح لفكرة إحضار الهاتف لقمر، كيف أحضرت هاتفاً لفتاة -لن أقول إنها ساذجة- ولكنها

لم تختبر الحياة بعد؟ ونحن في خضم الحرب هل تصدق أنها أغمي عليها فقط لأنها تأثرت بقراءة رواية؟

هل هذا تأثر طبيعي؟ أم أنه حزنٌ مبالغٌ فيه؟ ألا يمكن أن يكون هذا الحزن المبالغ فيه لتغطية أمرٍ ما؟

- لا تنسى أن هذه الرواية بالذات ذكّرتها بأهلها الذين قضوا حرقاً منذ أربعة شهور فقط، وهذه الفترة ليست

بالطويلة يا صخر مازال جرحها ندياً، ثم ما هو الأمر الذي تحتاج قمر لأن تغطيه وتتستر عليه؟

قال صخر ببعض الانفعال وقد بدا عليه بؤادر الضيق:

- ومن أخبرك أولاً أنها أحد أفراد تلك الأسرة التي احترقت يا بسام؟

ثانياً؛ لماذا كل أفراد الأسرة قضوا حرقاً إلا هي الوحيدة التي نجت؟

ثالثاً؛ لماذا تستبعد فكرة أن تكون (عيناً) علينا تنقل أخبارنا لطرف يريد تصفيتنا؟

قاطع بسام صخراً قائلاً:

- لا تتس أنت يا صخر أن راشد عباس هو الذي تعرّف عليها وأخبرنا أنّها أحد أفراد تلك الأسرة، وقد شهد لأسرتها بالسلوك الشريف الحسن، ولا تتس أنّها شارفت على الموت ولولا أن عثرنا عليها صدفةً لكانت لحقت بأهلها وقضت معهم دون شك

- وكيف عرف راشد ذلك وأسرتها قد تهجرت من مدينتها الأصلية؟

- ربما هناك من أخبره بذلك، لا بد أن له مصادره الموثوقة. راشد أوعى من أن يشهد بمعرفة فتاة ويزكيها وهو لا يعرف عنها شيئاً

صاح صخر:

- كفى سذاجة يا بسام! كيف لنا أن نتأكد من هذه الفتاة التي تعيش بيننا من تكون؟ لا هوية لها ولا أوراق ثبوتية. كيف سمحنا لها أن تعيش بيننا؟ ثم كيف ننق بفطنة راشد عباس؟ لولا أنّه طيب القلب لدرجة السذاجة هل كان ليصدق حيلة خاطفيه التي استدرجوه بها؟ كيف يمكن لك أن تطمئن وكل المعلومات عن تحركاتنا السابقة مع إنسان مختطف لدى جهة مجرمة درجة أولى!

- ألم أقل لك أنّك متعب يا صخر، الإنسان ليس بحاجة إلى أوراق ثبوتية حتى نتعرف عليه. سلوكه وتعامله، أفكاره وقيمه هي خير هوية له، ثم انتبه يا صخر أن طيبة قلب راشد واندفاعه ليست جريمة تنتقصه، إنما الجريمة هي ما قام به خاطفوه.

وجّه صخر نظرة حادة لبسام ورماه بكلمة كأنها صغعة من نوع معين قال له:

- لا تدع حبك لقمr يعمي بصيرتك يا بسام!

قال بسام باستغرابٍ ودهشة كبيرة بصيغة المتسائل:

- حُبِّي لقمr؟! (صدمت بسام كلمة حب، هل هذا الذي يشده لقمr هو الحب؟ من أين أتته هذه الفكرة؟)

ردّ عليه صخر:

- نعم حبك لقمr يا بسام. أدرك تماماً أنك تحبها، تضحك لهفتك عليها، سؤالك المتكرر عنها، حديثك المتواصل معها، انبهارك كلّما أطلّت، أنا لست ضد ولا يحق لي أن أكون مع أو ضد فالموضوع أخص خصوصياتك ولا يحق لأي مخلوق أن يتدخل، ولكن يجب علي النصيحة فالموضوع يحتاج إلى كثير من التحفظ والحكمة والذّراية

- ماذا تقول يا صخر؟! أنا أساعدها حباً بمساعدة الكل، حباً بمساعدة ضحايا الحرب، وليس حباً فيها!

- لا يا بسام، أنت تحبها حب الرجل لامرأة. أدرك أن بداية الحب كان بدافع الشفقة والحماس فهي أول جريحة تصادفها في أول مهمة ميدانية لكن لا تتهور وكن على حذر

احتدّ بسام وردّ عليه:

- أنت المتهور بتحليلاتك يا صخر!

- لا بل أنت وزوجة الطبيب المتهوران يا بسام! أنت الذي دفعك حماسك للتهور، وتلك دفعها حنينها وشوقها للأطفال الذين حرمت منهم طوال عمرها للتهور! قمر ليست مشروع حبيبة ولا ابنة يا بسام! (قال صخر ذلك وهو يصفق الباب خلفه أثناء خروجه من الغرفة معلناً انتهاء الحوار وتاركاً بساماً يقلّب أفكاره وتحليلاته وتساؤلاته. كيف يسمح صخر لنفسه أن يشكّ بقمر؟! كيف يسمح لنفسه أن ينتهمها؟! ما هذا الهراء؟!)

لم يتمكّن بسام مطلقاً أن يستسيغ كلام صخر ومنطقه، ولم يتمكن مطلقاً من التجرد من مشاعره تجاهها والنظر إلى ما يطرحه من منظوره وزاويته. فهذه الفتاة اللطيفة الجريحة تشغل تفكيره كيف يداوي جراحها، كيف يرسم البسمة على شفتها منذ استوطنت ذراعيه أول مرة عندما نقلها جريحةً إلى المشفى ثم عادت لتثبت وجودها داخله عندما حملها في إغمائها الأخير عند سماعها خبر خطف راشد.

ترك بسام الغرفة التي قاء فيها صخر شكوكه، وخرج منها إلى الشارع قبل أن تتحوّل إلى غولٍ ينشب مخابله في رأسه! وفي الخارج صدم عندما لمح حركةً مريبةً خلف الأشجار! تفاجأ وظنّ أن ما يراه تهيؤات بفعل شكوك صخر بوجود جاسوسٍ يراقبهم، تمالك بسام نفسه، قاوم صدمته وسأل:

- من هناك؟

أثاه صوتها: هذا أنا يا بسام

أصيب بسام بالدّهشة فهذا صوت قمر وقد بلّته الدموع، سألها باستغراب:

- أين أنت؟

ردّت عليه: أنا هنا... وخرجت من خلف شجرةٍ كانت جالسةً تحت ظلها مسندة ظهرها إليها وأخذت تنفض الأتربة عن ملابسها وهي تشرق دمعها

سألها بسام:

- ماذا بك؟ ما الذي تعلينه هنا؟

تجنّبت قمر النظر في عينيه وسدّدت بصرها إلى الأرض وقالت:

- لا أفعل أي شيء، أشعر بالاختناق في الدّاخل، أحاول أن أنتفس فقط

لمس بسام في صوتها تقطعاً ومحاولة لمداخلة بكاءٍ كان يسيل، نظر إلى عينيها وقد مسحت الدموع منهما فبدت آيةً من آيات الجمال المكلّلة بالطيبة والرقّة. طيبةٌ قلبها التي انطلقت منها فلّوت ملامح وجهها زادت من تدمير شكوك صخر في يقين بسام.

سألها بشفقةٍ:

- لماذا تكيين يا قمر؟

نظرت إليه بانكسار وأخذت تلملم الدموع التي عادت لتسيل على وجهها وقالت:

- لقد كثرت الأحزان يا بسام، لماذا كل هذا الألم؟ أنا لا أفهم لماذا كتبت علينا كل هذه المعاناة! لا مجال لبسمة، لا مكان لفرحة، لا محلّ لشعور جميل!

تساءل بسام في داخله كيف أشرح لها أنه ألم لا بدّ منه؟ وأنّ هذا ثمن الخلاص؟ فلا ولادة دون مخاض!

احتفظ بتساؤله لنفسه واستمرّ ينصت لقمر وهي تتابع:

- منذ 26 يوماً وأنا أصلي ليل نهار لكي ينجو راشد عبّاس من أيدي خاطفيه! كم تأملت أن يطلق سراحه قبل رمضان وها هو النهار الأوّل من رمضان شارف على الانتهاء ولم تستجب دعواتي! أنا لا أفهم لماذا كتبت المعاناة على الحب في هذه الأرض؟ لماذا يقاسي المحبّون؟ لماذا؟

انطلق بسام يتأملها وهي تتساءل بأسى عن سر مطاردة الشقاء للمحبين، كم يتمنّى أن يربّت على قلبها الطبيب، كم يتمنّى أن يضع إصبعه على شفثيها النضرتين فيسكتها وتعجز عن إنتاج هذا الكلام الذي يسكره بطيبته ولطفه ببراءته وطهر معانيه! كم يتمنّى أن!

ابتعد بسام خطوه إلى الوراء محاولاً الهرب من تمنياته التي أخذ يرصد تفاعلها داخله! وقال لها بصيغة مباشرة:

- ادخلي غرفتك يا قمر، فالوضع ليس آمناً

صُدِمت قمر من صيغة الأمر الغير متوقعة والصادرة عن بسام، لماذا لم يجيبها عن أسئلتها؟ لماذا لم يطمئنّها على مصير الحب الذي يجمع نغم وراشد؟ ما به؟ لماذا انقلب قاسياً فجأةً هكذا؟ لم تعتد منه هذا التجاهل لمشاعرها وأحزانها!

حملتُ قمر دموعها، وزادت عليهم خيبتها من سلوك بسام ودخلت طائعةً إلى المنزل! انتظرها حتى دخلت، فتنفّس الصُغَداءُ، ها قد نجح في مقاومة سحر براءتها والغروب ومشاعره التي أيقظتها ملاحظة صخر .

في هذه الأثناء كان غيثٌ جالساً على مائدة الإفطار مع منى وأسرته منتظراً أذان المغرب، وهو يحتفي بأول يومٍ من أيام رمضان، هذه الأيام التي ناقت لها الأرواح لترتوي من تجلياتها وفيض رحمتها. كم أسعده المناخ الرمضاني الذي هلّ مع قدوم هذا الشهر الفضيل، كم يشبه هذا المناخ، مناخ الألفة والحب والترابط الاجتماعي الذي يخلقه قدوم رمضان في غزّة. ها هي الطرقات هدأت بعد ازدحام زان الطرقات في الدقائق الأخيرة قبل الأذان، وها هي الأسر كلها متحلّقة حول الموائد تنتظر مدفع الإفطار هذه الموائد التي تربع على عرشها مختلف أصناف الطعام من محاشي إلى المنسف إلى الكبب والسلطات وشورية العدس والخضر، وتوزعت بينهم صحون التمر والرّطب، وها هي العصائر التي كانت تباع في الأسواق والساحات العامة ترتضّ على الطاولة من الخرنوب إلى العرقسوس إلى قمر الدين، وجانباً وضعت الحلويات في تقليد مشابه جداً لتقليد ترتيب الموائد في غزة التي تشابه أصناف الطعام المتواجدة هناك أصناف الطعام المتواجدة هناك إلا أن سيد المائدة هناك المقلوبة والسماقية والمفتول والقدرة. سمع الجميع صوت المدفع فارتسمت البسمات على الشفاه ورتلت الأفواه دعاء الإفطار وسارع الجميع إلى وضع الطعام في أفواههم مع قول المؤذن الله أكبر!

5 تموز 2014

ما زال يشعر بالاختناق الذي ما فتىّ يزداد حدّةً منذ الأيّام الثلاثة الماضية وهو يتابع الأخبار الواردة من القدس، لطالما فتحَ هاتقه بقصد الاطمئنان على وطنه وأبناء وطنه ولطالما نقل هذا الهاتف بكل غباء مصائب الدّهر. ها هي صفحات وسائل التواصل الاجتماعي تضحّج بالأخبار والمنشورات التي تنتشر وتناقش أحداث وحشيات الجريمة المروّعة التي راح ضحيتها محمد أبو خضير، هذا الفتى المقدسي الذي بالكاد انتهى قبل أيام قلائل من تزيين شوارع شغاف بالفلوانيس الصغيرة احتفاءً بقُدوم شهر رمضان، لم يكن ذنبه إلا أنه وأهله قد رفضوا ترك أرضهم لقمةً سائغةً يلوّكها الصهاينة. فلقد تناول هذا اليافع سحوره في تمام الساعة الثالثة والنصف وخرج من منزله قاصداً أحد المحال التجارية ليجتمع مع أصحابه ثم يذهبوا سوياً إلى صلاة الفجر، وهناك فجأة توقفت سيارة فيها عدة مستوطنين أتوا لتهريب السكان على ما يبدو كاستجابة لدعوات عضو الكنيسة الإسرائيلي ايليت شكر التي حرّضت على قتل أطفال فلسطين في منشوراتها على الفيس بوك واصفةً إياهم بالثعابين الصّغار.

وهناك شاهدوا محمد يقف وحيداً، وفي لمح البصر اختطفوه بسيارتهم رغم محاولة المقدسيين منعهم أو اللحاق بهم إلا أن كل محاولاتهم قد باءت بالفشل، وفي ساعات الصباح الأولى أعلنت شرطة الاحتلال العثور على جثة محروقة وعليها آثار تعذيب في أحراش دير ياسين.

نعم، إنها جنته، لقد ضجّت وسائل الإعلام تستنكر هذه الجريمة النكراء وهبّ الناس يواجهون على الأرض الاحتلال ومحاوله تسنّره على المجرمين، فخلال اليوم الأول فقط أصيب 55 فلسطينياً في المواجهات الدائرة في حي شغاف وقد امتدت إلى أحياء القدس وغيرها!

صاح غيث (آه) وشعر أنها (آه) قادرة على أن تملأ صدر الأكوان أسي!

ألم يئنّ لأهل فلسطين أن يعيشوا بسلام؟!

ألا يحق لأرض السّلام التي ما رأت يوماً سلاماً أن تحيا بسلام؟!

ألم يكتفِ الاحتلال من قتلنا؟!

ألم يشبع من نهش لحومنا؟!

ألم يرتو من شرب دماننا؟!

ألم يعلم أن مكوثه مهما طال زائل؟! وأن إرهابه مهما اشتد فهو دون طائل؟!

يا لهذا الجرح الذي مازال ينزف منذ قرن!

يا لقبح الاحتلال! يا لقبح منهجه!

أطفلٌ بعمر الورد يخطف؟! ويعذب؟! ويجبر على شرب البنزين؟! ويحرق حيا؟!

ومن المشتبه به؟! إنهم بحسب الأخبار الأولية التي تتناقلها الأهالي بناءً على صور كاميرات المراقبة خمسة مستوطنين والغريب أن بينهم حاخام، وهل الحاخام رجل دين أم فرد في عصابة؟!!

للم غيث جراحه وابتلع غصاته وخرج من بيته يريد أن يودّع منى، فغداً موعد سفره إلى غزة. لقد قرّر أن يذهب إلى غزة ويبيع أحد عقاراته هناك ليشترى عقاراً في لبنان وليطمئن على أهله ويعزمهم لحضور حفل زفافه في ثالث أيام عيد الفطر المبارك وإن كانوا لا يستطيعون حضور حفل الزفاف بسبب قوانين وإجراءات السفر التي تمنع الفلسطيني والغزوي على الأخص من دخول لبنان، لكنّه الواجب الذي يحتم عليه إعلامهم ودعوتهم، وخاصةً أنّه قرّر أن يسكن مبدئياً في لبنان مع منى وأن يتردّد بين الحين والآخر إلى غزة.

ما أصعب الحياة حين تكتب علينا أن نفارق لنجتمع بمن نحب! فهو إما أن يفارق غزة، أو يفارق منى، فقرّر ألا يفارق أيّاً منهما وأن يعمل جاهداً أن يبقى متنفلاً بينهما. ولكنّ منى هذه الأيام تجري في عروقه، تسير في دمائه، يتنفّسها، أتراه يحتمل ابتعاده عنها ريثما يدعو الأهل في غزة ويعود؟

أتراه يتمكن من احتمال شوقه إليها؟

كيف لعينه أن تُحرما من النظر يومياً إلى عينيها؟

كيف لأذنيه أن تُمنعا من السماع مباشرةً لصوتها، لِعَذْبِ كلماتها؟

كلماتها! آه من كلماتها تلك التي طالما اجتاحتها كزلال يهزُّ أعماقه، يدمر دفاعاته، يطلق أمواج الشوق التي تجرّفه إليها!

لا يظنُّ أنّه قادر على فراقها في الوقت الحاضر لكنّ هذا الفراق يهون لأنّه يعلم أن اجتماعه بها بعد عودته وزفافه سوف يستمر للأبد!

وصل غيبٌ إلى باب بيتها، طرق الباب عليها، لم يفتح له أحد! اتصل بها، وجد أن هاتفها مغلق! انشغل فكره كثيراً وشعر بالقلق عليها، لا بد أن مكروهاً ما أصابها أو أصاب والدتها خاصةً بعد اشتباهه ومنى بخبر اعتقال والد زهره وإخوانها بل وزوجاتهم في سوريا منذ يومين. أراد أن ينصرف إلى بيته لولا أن

خطرت له فكرة أن يسأل طارقاً ابن عمها الذي يسكن في الطابق فوقها، فلو حدث مكروه ما لا بُدَّ أن طارقاً هو أوَّلُ العالمين به!

صعد غيث الدَّرَجَ وطرق الباب عليه، بضع لحظاتٍ وفتح الباب، تفاجأ طارقٌ عندما رأى غيثاً وكأنه كان بانتظار أحدٍ ما أدرك غيثٌ ذلك بفراسته عندما قرأ لغة الجسد عند طارق لكأنه تجاهلها وسلم عليه:

- صباح الخير

- صباح النور، أهلاً غيث!

- آسف على الإزعاج لكن أين منى وزوجة عمك؟

- لا أدري! أليسوا في المنزل تحت؟ تقصّل نتكلّم في الداخل!

- لا أريد الدُّخول، لكنني قلقت عندما أتيت ولم أجد أحداً مطلقاً، رغم أنه السبت عطلة منى وهي لا ترد على اتصالاتي فقلت لنفسني لا بُدَّ أنك تعرف أين هم

- أدخل خمس دقائق فقط ريثما أجري اتصالاتي وأعرف أين هم، ماذا حلَّ بهم، تقصّل يا رجل!

- حسناً...

دخل غيثُ منزلَ طارق وجلس في غرفة الاستقبال وأخذ يسأل نفسه لماذا شعر بدايةً أنه أتى في الوقت الغير مناسب؟ وإذا كان الوقت كذلك لماذا أصّر عليه للدُّخول؟ ثم تبسّم غيثُ فجأةً وقد لفته موضوع آخر، لفته الفرق الواضح بين شقّة طارق وشقّته وكلّ منهما شابٌ أعزّبٌ مغتربٌ يعيش لوحده في الوقت الذي تعمُ فيه الفوضى شقّة غيث ترى الترتيب والنظافة والحياة تضجُّ في شقّة طارق.

ولما طال انتظار غيثٍ لطارق الذي دخل لتغيير ملابسه ناداه غيث قائلاً:

- طارق، هل يمكنني أن أقف على الشرفة؟

أثاه صوته: خذ راحتك واعتبر البيت بيتك

خرج غيث إلى الشرفة، بهرته الإطلالة اللافقة فهذه الجبال تصطف أمامه بكل جبروت وقد ناطحت السحاب وهذه البيوت تناثرت عليها هنا وهناك كزهور بعثرها الريح على بساط الطبيعة، لا تلج يعلو الجبال فيلطف الطقس ويطفئ لهيبه، ولا ماء يمكن شربه لطرّد العطش، بل رطوبةٌ وحرارةٌ جعلت المناخ صيفي سياحي بامتياز. فتح غيثُ هاتفه وأخذ يصور المشهد أمامه، يتشاغل به عن العطش والحر، يا لجمال الطبيعة! ما أروع من مشهد!! فجأةً سمع غيث صوتاً ما فلتفت تلقائياً وهو ما يزال يصور بكاميرا هاتفه، وإذ نفحة

هواء دفعت باب غرفة النوم المطل على الشرفة وتسببت بتطاير الستائر. شعر غيثٌ بأنَّ الأرض تميل تحت قدميه، ما هذا الذي لمحّه من خلال شاشة الهاتف؟ أغلق الهاتف ونظر جيداً وشعر بأنَّ صدمةً تقجّرت في داخله وكادت تقجر رأسه!

بعد ثوانٍ معدودة خرج طارق إلى الشرفة فلم يجد غيثاً، سأل نفسه: هل تأخرت عليه كثيراً حتى ملَّ الانتظار؟ في نفس اللحظة سمع صوت إغلاق باب الشقّة مدوياً وكأنَّ غيثاً أراد أثناء مغادرته أن يفجّر الباب بالبيت بالسكان الذين فيه.

صفّر طارق مستاءً من سلوك غيث وقال في نفسه: لطالما أزعجني هذا الرجل! لطالما شعرت أنّه نزقٌ ولا يحبّني! لكني أتجاهل شعوري كرامةً لمنى! والآن ماذا حدث له؟ ما هذا السلوك الغير مؤدّب واللامبرّر؟ لم ينتظر غيثُ المصعد بل لم يستطع أو يفكر بانتظاره ونَزَلَ الدُرَجَ غاضباً مسرعاً وفي ذاكرته شظايا المشهد الذي كان يصوره منذ لحظات! ما هذه الملابس الشقّافة المغربية! أليست هذه ملابس النوم التي اشترتها منى أثناء تسوّقها ذات مرّة وحملتها معها إلى موعدها مع غيث؟! أليست هذه الملابس التي سقطت من أكياسها على الأرض يومها والتي سارع غيث مع منى إلى توضيبيها؟! أليس هذا مشبك شعرها؟ بل أليست هذه رائحة العطر النسائي التي انكسرت زجاجته وبه جرح يده؟! ما الذي يحصل؟! ماذا تفعل ملابس منى التي تشتريها كجهاز لها في غرفة نوم طارق، ابن عمها العازب الذي يسكن الشقّة لوحده؟!

(تبأ لهم من عائلة؟! تبأ له! تبأ لها) قال غيث ذلك في نفسه ولم ينتبه أنه أثناء نزوله على الدُرَج بهذا الشكل الهستيري قد اصطدم بفتاةٍ عشرينيّةٍ فأرداها أرضاً وانزلت هبوطاً عدّة درجات! صحا غيث من سكرة غضبه وسارع إلى الفتاة فأمسكها وحاول مساعدتها على النهوض، وضعت الفتاة يديها على بطنها الأمر الذي صعق غيثاً وذكّره بزواجه الشهيدة أثناء حملها! قال في نفسه: هل يعقل أنها حامل أيضاً؟

سارع إلى القول لها:

- عفواً... عفواً... لم أقصد إيذاءك! هل أنت بخير؟! هل أنت بحاجة لطبيب؟

سكنت المرأة وأجهشت بالبكاء!

خاطبها غيث وقد أربكه ما صنعه بها:

- هل تتألمين؟ هل أنصل بالإسعاف؟ هل أنقلك إلى المشفى؟

ردّت عليه المرأة باكيةً:

- لا لست بحاجة لطبيب ولا لمشفى!
- عفواً لم أركِ
- ردّت عليه المرأة بغضبٍ وهي تمسح دموعها:
- هلاً تذكرت أن هناك بشراً يعيشون معك على هذا الأرض! يصعدون نفس السلم وينزلون!
- لم أقصد إيذاءك
- لم أركِ صدقيني!... كنت مسرعاً... كنت غضباً
- قاطعتها المرأة:
- حصل خير
- هل بإمكانني أن أساعدك؟ هل بيتك بعيد؟ دعيني أوصلك
- ردت عليه بنفس مستوى الضيق منه:
- وصلتُ منزلي إنه في الأعلى
- لماذا لا تستخدمين المصعد إذا؟
- أنه يشعرني بالدوار
- ذكرته كلماتها أكثر بزوجته الشهيدة في بداية حملها، إنه يكاد أن يجزم أنها حامل وهذا ما زاد من قلقه عليها
- لكنه من غير اللائق أن يسألها، لذلك أخرج غيث بطاقة الشخصيّة وقال لها:
- إن احتجت طبيباً أو أصبت بأي ضررٍ بسبب سقوطك هذا فهذا رقم هاتفي يمكنك الاتصال بي مباشرةً وأنا على استعداد لتكفل بتكاليف علاجك
- تجاهلت المرأة البطاقة وقالت بمضضٍ:
- شكراً لست بحاجة لعلاج
- ثم حملت نفسها وتابعت الصعود على مهل بينما تريث غيث مكانه للحظات يريد أن يطمئن عليها لكنّه سرعان ما صرف النظر عن موضوعها ونزل الدرج...
- في الأسفل وبينما كان طارقٌ يضع مفاتيح سيارته في القفل يريد فتحها لمح غيثاً وهو يسير مغضباً فتح باب السيارة وجلس فيها وقال:

- نعم منى... أنا معكِ... لقد دخلت سيارتي للتو... أنا قادم إليك ولكن إلى أي مشفى نقلت والدتك!؟

أخبرته منى باسم المشفى فسارع إليها طارق، لم تشأ منى أن تتصل بغيث فتشغله بسبب حالة والدتها الصحية وكذلك حالة زهراء!! تركته يأخذ قسطاً من الراحة فهو على موعد مع السفر غداً إلى غرة، لقد سهر حتى منتصف الليل في بيت أهلها ثم عاد إلى منزله فأخذ يحادثها حتى السحور وصلاة الفجر ثم عاد ليحادثها بعد أذان الفجر حتى الضحى.

هكذا هم الأحباب لا يملّون من الحديث المتواصل فهم لا يتحدثون بهدف إيجاد الحلول أو التخطيط للمستقبل وإنما يتحدثون حباً بالآخر وبحديثه وكثرة الحديث بينهم دليل على كثرة المشاعر، وانقطاعه دليل على انقطاع المشاعر .

تصدّت منى للخطر الصحي الجديد الذي أحرق بأسرتها، فمن جهة هذه والدتها دخلت غيبوبة بسبب الارتفاع الحاد بمستوى السكر من جديد، ومن جهة أخرى دخلت زهراء نوبة اكتئاب جديدة وكلاهما بسبب الأخبار التي وصلتهم على حين غرة والتي تعيد باعتقال بقيّة أسرة زهراء .

في الوقت الذي استغاثت فيه منى مولاهما في داخلها راجية بقولها: (إلهي ألهمني المزيد من القوة حتى أتمكن من النهوض بمن حولي فأنة لا حول ولا قوة لي إلا بك!) كان بسام -الذي يقف خلف آلة التصوير يصوّر صديقه صخر وهو يوثق ماذا حل بالمشفى الميداني بعد دقائق من قصفه -يشعر أنّ القوّة خانتها، ها هي أذناه تسجّل ببطءٍ ومرارةٍ كلمات صخر:

(هذا وقد انهار الجانب الأيمن من المشفى حيث سقطت القذائف وقد تعطلّت الكهرباء، انقطعت عن المشفى! انظروا معنا إلى هؤلاء الأطفال الخدج لحظات ويلفظون آخر أنفاسهم نتيجة توقف أجهزة التنفس عن الحضانات!)

خلقت هذه الجملة نقطة تأثر وتأثير في أعماق بسام فشكّلت بؤرة انطلقت فيها دوائر الانفعال وأخذت تتسع حلقاتها حتى اجتاحت كل كيانه. ثم أخذ يتردد في أعماقه:

هؤلاء الأطفال الخدج لحظات ويلفظون آخر أنفاسهم نتيجة توقف أجهزة التنفس

..... الأطفال الخدج لحظات ويلفظون آخر أنفاسهم

الخدج ويلفظون آخر أنفاسهم

الخدج ويلفظون أنفاسهم

وهكذا لفظ بسام قوته كما لفظ هؤلاء الخُدَّج أنفاسهم وسقط على الأرض مذهولاً مصعوقاً وألف سؤالٍ يقصف في رأسه:

ما أقبح الإنسان؟!

ما أشد فجره؟!

ما ذنب هذه الملائكة الطيبة العطرة؟!

لماذا كتب عليهم القتل خنقاً في أول أيام أعمارهم؟!

كيف بإمكانني أن أساعدهم؟! أن أبعد الموت عنهم؟!

سقط بسام أرضاً وكان ملك الموت الذي ينزع أرواح الأطفال بدأ ينزع روحه معهم! وأخذت أعماقه تنتحب! ثم انطلقت دمعاً من عينيه تعلن أنَّ ما يحدث يفوق قدرته على التحمل! وأخذ يبكي.... يبكي أرض جدوده التي أهلكها الدمار! يبكي الأبرياء الذين قتلوا بالآلاف! يبكي الجرائم التي رآها بأَم عينه! يبكي عجزه، يبكي ضعفه، يبكي قلة حيلته في نصره الضعفاء! لقد آمن الآن أن نقل الحقيقة لا يعني أحداً... فالحقيقة واضحة وضوح الشمس لكنَّ البشر يحبون الظلم والظلام والظلمات!

اقترب صخر من بسام وهمَّ برفعه عن الأرض وقال:

- هذا آخر خبر تغطيه

دوّت كلماته في رأس بسام ترافق دويها مع دوي طلاقات رشاشات تطلق قريبة منهما ودوي رشاشاتٍ مضادة.

شعرث

6 تموز 2014

مازال حبيب غرفته منذ عاد البارحة ظهراً مطعوناً بمشهد رؤيته لملابسها الخاصة في غرفة نوم طارق، لقد باءت كل محاولات الجارة لإخراجه من شقته بالفشل! فلقد طرقت عليه باب الشقة مراراً وتكراراً بناءً على توجيهات خالته التي ما انفكت تتصل كل ثلاث ساعات تطلب منها طرق باب الشقة عليه والسؤال إذ كان بحاجة لأي مساعدة وإذا كان بإمكانها أن ترسل معه بعض الهدايا لأهلها في غزة، إلا أنه كان يستعصم بالصمت ويلوذ بالوحدة!

واليوم لما فتح الباب أخيراً كان قد أنهى توضيب ملابسه وحاجياته وخرج من شقته يجر حقيبة سفره وخيبتته بانساً كبيراً، وعندما وصل إلى الطابق السفلي وقبل مغادرته باب البناء وجد الجارة بانتظاره، لقد فتحت باب شقتها لتراه أثناء مروره من أمامها وأرهفت السمع لدرجة سمعته عندما فتح ومن ثم أغلق باب شقته ثم عدت خطواته عند نزوله الدراجات لتتأكد من اصطياحه عندما يصل أمامها، ففعلاً أحسنت الخروج إليه في اللحظة المناسبة، نظرت إليه فرصدت الألم الذي يجتاحه والذي انعكس في انكسار نظاراته ووهن خطواته، سألته متوجساً:

- أين كنت يا ولدي؟! لقد شغلت بال خالك وبالي! أليس اليوم موعد سفرك؟!

نظر إليها بتعب وقال:

- نعم يا خالتي أنا ذاهب الآن إلى المطار

- توصل بالسلامة يا ولدي لكن هل يمكنني أن أرسل معك بعض الهدايا للأهل والجيران في غزة؟!

- أرجو أن تعزيني يا خالتي، هل يمكنك أن ترسلهم مع أحد آخر غيري؟ أشعر أنني لا أقوى على حمل نفسي، أنا متعب لدرجة كبيرة.... آسف يا خالتي!

(لم تكن الجارة بحاجة لأن يخبرها أنه متعب لدرجة كبيرة فلقد رصدت التعب من أول نظرة ولقد تحققت منه بأم عينها عندما حادثته قبل أن يصريح)

ردت عليه الجارة بحنان:

- لكن لماذا تسافر ما دمت متعباً؟ أجل سفرك قليلاً

- أريد المغادرة بأسرع وقت!

- لماذا السرعة يا ولدي؟! الطريق إلى غرة ليست سهلة ومشوارك طويل! ابقَ حتى ترتاح قليلاً ثم توكل على الله!

- أريد أن أنهي هذا المشوار الآن لا أريد له أن يتأجل مطلقاً

- ولكن لماذا؟! ما الذي حصل لك؟!

سألت الجارة بإصرار رغبةً في استدراجه بالكلام ومعرفة ما يخفي وما الذي أتعبه لهذا الحد!

رصدت الجارة- التي لم يمنعها جهلها بالحروف من أن تتقن قراءة لغة العيون مذ أصبحت أمّاً تقرأ احتياجات أولادها في كتاب عيونهم حتى قبل النطق والكلام، والتي قرأت اليوم في عيني غيث سطوراً عميقة خطها بحروف من السخرية والأسى والإحباط والمرار - نظرة فهمت منها أنها تقف أمام رجلٍ مُستنزفٍ لا حياة فيه ولا روح.

رسم غيث على وجهه بسمة باهتة وسار في طريقه معتقاً الصمت جواباً لتساؤلات الجارة ودرعاً يتحصن فيه أمام سهام أسئلتها التي توقع أن ترميه بها، وعندما سألته (متى تعود؟) استمر بالمشي صامتاً حتى شارف على الاختفاء لكنها تفاجأت به وكأنه يجيب (لن أعود!).

في هذه الأثناء كانت منى تشعر بالقلق الشديد على غيث الذي لم تَرَ منذ البارحة صباحاً لانشغالها بوضع والدتها في المشفى، كما أنه لم يتصل بها ليلاً ولما حاولت الاتصال به وجدت هاتفه طوال الوقت مغلقاً، وزاد قلقها سلوكه النزق المبهم الذي صدر عنه عندما كان في بيت طارق.

أخيراً وقبل موعد طائرته بأربع ساعات قرّرت الاتصال بخالته:

- صباح الخير يا خالة

- صباح النور يا منى، أهلاً يا بنتي

- هل غيث عندك يا خالتي؟

- لا غيث ليس عندي

- إذأ هل تعرفين أين هو؟

- والله يا بنتي أنا في طريقي إلى أداء العمرة ولم أرَ غيث منذ قبل البارحة عندما ودعته مساءً

- أسفة يا خالتي لو هله نسيت أنك في طريقك إلى العمرة

- ولا يهتمك يا بنتي، بالمناسبة كيف حال والدتك؟

- هي بخير لقد تحسّنت

- اهتمي بها وبنفسك

- عمرة مقبولة يا خالتي

- أوصلي تحياتي لأسرتك

أغلقت منى الهاتف ونظرت إلى طارق الذي أتى للاطمئنان عليها وعلى والدتها نظرة استغاثة سريعة وقالت له:

- طارق هل بإمكانك أن أطلب منك خدمة؟

- تفضلي بنت العم

- أريد أن تبقى هنا في المشفى مع أمي لتعتني بها ريثما أذهب إلى المطار أودع غيثاً ومن ثم أعود

- أرجو منك يا منى ألا توصيني فأأمك أمي وأنا باقي معها على كل أحوال حتى تغادر المشفى، بإمكانك أن تذهبي وأنّ مطمئنة عليها، بالمناسبة كم ساعة بقي حتى تطلع طائرة غيث؟

- ما يقارب الأربع ساعات

- أسرعى فبالكاد تستطيعين اللحاق به فأزمة المرور خانقة جداً خاصة على طريق المطار

أمسكت منى حقيبة يدها وانطلقت إلى الشارع ركبت سيارة الأجرة التي اعتادت على طلبها وتوجّهت إلى المطار، خلال المسافة الطويلة التي قطعها إلى المطار الوحيد الموجود في العاصمة بيروت اجتاح أعماقها طوفان من الأسئلة المقلقة:

- لماذا هاتفه مغلق منذ البارحة؟

- كيف لا يطمئن عليّ أو على والدتي؟

- هل يعقل أن يسافر دون أن يودّعني؟

- لماذا صدر عنه ذلك السلوك النزق عند طارق؟

- هل هو مريض؟ كيف يسافر إذا كان مريضاً؟

- لماذا لا يتصل ويخبرني، ما الجديد ماذا قرّر؟

بعد مشوارٍ طويلٍ مقيتٍ وصلتُ منى إلى المطار في الدقائق الأخيرة كما توقعت، وأخذت تبحث عن غيثٍ بقلقٍ واضطرابٍ بين جموع المسافرين والعائدين والمنتظرين بعد وقتٍ عسيرٍ ودقائقٍ عصيبةٍ لا يستهان بها في الوقت بدل الضائع لمحته من بعيدٍ يجلس وحيداً على كرسيه وقد أرحى كنفه -على غير عادته- وباعد بين ساقيه واضعاً يديه بينهما وقد لمس معصميه ببعضهما البعض مصوباً رأسه وبصره تجاه الأرض في جلسةٍ توحى بأنه متعبٌ وحزين.

ركضت منى اتجاهه ونادته بلهفة:

- غيث!

لم يسمعها، أو هكذا اعتقدت -على الأقل- أسرعت أكثر وأصبحت مقابلة له أو تكاد فرأته ينهض ينزع هاتفه من الشاحن يشد حقيبته وقد همَّ بالتوجه إلى غرفة أمن المطار!

وقفت على بعد ثلاث خطواتٍ متفاجئة ببروده وقالت:

- غيث! أين كنت؟! لماذا لا تفتح هاتفك؟! هل هو مقفل منذ البارحة ظهراً؟!

نظر غيثٌ إلى منى نظرة باردة فاترة لم تتجاوز أحداقه وقد كانت نظراته من قبل تشتعل باللهفة والشوق، ثم صرّفت نظره تجاه هاتفه وكأنه تذكرُ إشعاله، انشغل بالهاتف عدة لحظات وأدار ظهره لمنى وتابع المسير باتجاه الدّاخل.

هتفت منى باستغرابٍ بينما كان يبتعد:

- غيث! ماذا بك؟! إلى أين أنت ذاهب؟!

- إلى غزة

- ومتى تعود؟

- لن أعود

ألجمت الصدمة فم منى ويُهتت من برودة ردة فعله الحاسمة المليئة بالنفور واللامبالاة!

وبينما كان غيث يتابع آخر خطواته باتجاه الدّاخل رنَّ هاتف منى تلك الرّنة الحبيبة إلى قلبها التي خصّصتها لتزف لها دوماً بشرى قدوم رسائل غيث.

نظرت إلى شاشة الهاتف فوجدت أن تسجيلاً مصوراً مرسلًا من غيث قد وصلها للتو، ازدادت دهشتها وتساءلت عن سر إرسال هذا التسجيل المصور في هذه اللحظات!

فتحت منى التسجيل القصير جداً فأدركت مباشرة أنه تم تصويره على شرفة منزل طارق ثم اهتزت الصورة أثناء تصوير شيء ما...

ثوانٍ معدودة ثم أرسل لها غيث وهو يتابع سيره:

(موت الحرّة ولا؟؟!!!!!!) وأتبعها عشر إشارات تعجب واستفهام...

عندها ومَضَ الإدراك في ذهن منى كالبرق ثم تبعه فهمها لما يرمي له كالرعد يقصف في عقلها! هل يعتقد غيث أن هذه الملابس الشفافة المغرية التي ظهرت في آخر لحظات التسجيل المصوّر عندما اهتزت الصورة هي ملابسها الداخلية في غرفة نوم طارق؟!

هل يعتقد أنها ملابسها التي ساهم في ترتيبها عندما أوقعتها من غير قصدٍ في المقهى؟!

هل ما زال يتذكرها؟!

لكن هذه ليست ملابسها إنها ملابس دعاء، لو يتذكر!!

تسَمَّرت منى في مكانها، عجزت عن الكلام وغادرت وجهها آخر قطرة دماء خاصة وأنها رأت غيثاً يقف ويكتب شيئاً باستعمال هاتفه سرعان ما وصل إلى هاتفها، نظرت إلى رسالته وقرأت فيها:

أنتِ طالق!

جاءت جملة كعذبة أطلقت عليها فهذمت أحجار المقاومة فيها، جرّت جسدها المتصدّع وتابعت خطواتها

المثقلة بأطنان الألم آفةً إلى الوراء حتى وصلت إلى أحد المقاعد الباردة وهناك رَمَتْ بقاياها عليه!

غرقت منى في صدمة قوية شغلها عمّا يدور حولها، جعلتها تعيش حالة من الذهول وسألت نفسها: هل

هذا الذي تعيشه الآن واقعٌ أم أنه كابوس؟

هل قرأت لتوها أنه أرسل لها (أنتِ طالق)؟!

لماذا عادت حروف هذه الجملة تقصف في رأسها كالرعد بينما تحوّلت الدنيا كل الدنيا من حولها إلى ظلمة

وسواد؟!

أين النور؟!

أين الشمس؟!

أين أنا؟!

أين غيث؟!

أين رحل؟!

لماذا رحل؟!

وكيف يرحل قبل أن يفهم حقيقة ما رأى؟!

وما هذا الرحيل الذي يطاردها منذ كانت صغيرة؟!

لماذا رحل أبوها؟!

لماذا رحل بسام؟!

لماذا رحل زوج زهراء؟!

هل رحل خالها وأولاده في المعتقل؟!

هل سترحل والدتها؟!

لماذا على كل من هو بقربها أن يرحل؟!!

شعرت منى بأن رأسها أصبح ثقيلًا وأن موجةً من الصقيع بدأت تلوح في عالمها، قاومت منى دمعها ضمّت نفسها وانكفأت على ذاتها ببطءٍ وأسندت رأسها إلى الحائط وراءها إلى أن سمعت صوت السائق الذي ملّ من انتظارها وأتى يستعجلها يكرّر: هل تسمعينني أستاذة منى؟ هل أنت بخير؟

ردّت منى عليه بصوت منهكٍ: هل أذن المغرب؟

ردّ عليها السائق: منذ عدة دقائق

عقبت منى: ماء...أريد ماء!

سارع السائق إلى إحضار الماء وانتظرها ريثما رشفت بعضه ثم سألها:

- هل اتصل بالإسعاف؟

- لا لا داعي للإسعاف، أنا بخير

- لا لست بخير أستاذتي! فهذا وجهك شاحبٌ كثيراً وهذا التعب بادٍ عليك بشدة! وبالكاد سمعتيني بعد إعادة سؤالي عدة مرّات ولم ترددي على عشرات الاتصالات! لقد كنت أفضل أثناء المجيء.

أغمضت منى عينيها ثم أعادت فتحهما وكأنها تحاول أن تتذكر ماذا جرى وأن تستوعب ما يقول ثم عَقَبَتْ:
أنا بخير لكن رأسي يؤلمني... يؤلمني جداً!

ثم مدَّت يدها إلى حقيبتها وأخرجت علبة دواء وضعت ثلاثة حبوب لمعالجة الصداع في قبضتها ثم ابتلعتهم دفعة واحدة. تفاجأ السائق بسلوكها فهو يعرفها ويعرف حيويتها ومقاومتها فهتف مستغرباً:

رويدك رويدك يا أستاذة إن الإكثار من الحبوب يضر ولا ينفع! ما هذا الذي تفعلينه بنفسك؟

نظرت إليه منى نظرةً باهتةً ورسمت على شفتيها بسمَةً متظاهرةً بتفهمٍ وتقبُّلٍ أقوال السائق وسارت معه حتى جلست في السيارة. أثناء عودتها أدرك السائق أن منى قد تحوّلت إلى كتلة من الجمود والذهول، وكذلك أدرك طارق عندما لمحها قادمة من بعيد تمشي عبر الممر في المشفى مقتربةً من غرفة والدتها، لم يستغرب طارق ردة فعل منى، فلطالما قاومت منى الدمع بالتجذُّد ولطالما دافعت الشكوى والحديث عن الآلام بالصمت العميق، لكنه اعتقد أن جمودها وذهولها إنما سببه الحزن على فراق غيث ولم يعرف مطلقاً أنه سبب طلاقه لها.

استقبلها طارق مرحباً:

- حمداً على عودتك، هل رحل؟

استقبلت ذرات منى كلمة رحل وكأنها قطعه ثلج تغلغل إلى أعماقها وأثارت مقتتها وحساسيتها، تبسّمت منى بفتور وأجابت:

- نعم رحل

ثم قطعت منى على طارق درب الاسترسال في الأسئلة وقالت:

- كيف حال أمي؟

أدرك طارق رغبة منى بتغيير الحديث وتجاوب معها مباشرة فردَّ عليها:

- أملك بخير، وضعها مستقر، وربما تخرج غداً صباحاً

- هل تناولت الطعام؟

- بكل تأكيد، تناولت وجبة الغداء بعد مغادرتك مباشرة، وقبيل المغرب قدموا لها وجبة عشاء مبكرة

- هل صليت القيام؟

- ليس بعد، بإمكانني أن أؤخره حتى الثلث الأخير من الليل

في هذه اللحظة بالذات شد انتباهها صوت المذيعة على شاشه التلفاز تتلو الخبر العاجل (تعرض طاقم قناة الحقيقة الإخبارية في مدينة حلب السورية لنيران مجهولة المصدر أردت طاقم القناة بين شهيد وجريح، وقد عرف من شهداء القناة الشهيد الزميل....)

نظرت منى إلى طارق بعينين اغتالهما الخوف والرعب ووجهه كاد الدم يتبرأ منه من جديد، أخفض طارق صوت التلفاز خوفاً من أن تسمع (أم بسام) الخبر! فيسام هو أحد أفراد هذا الطاقم ولا بد أن خبر استشهاد الطاقم بالنيران سوف يقضي على ما استردت من عاقبتها إن لم يقض عليها هي بالذات!

ثم سارع إلى الخارج يجري بعض الاتصالات العاجلة، بينما أسندت منى ظهرها إلى الحائط بحثاً عن السند وانهارت على المقعد القريب ثانيةً. إنه ثاني زلزال مدمر يصيب أركانها خلال بضع ساعات فقط، جحظت عيناها وخبأت داخلها خوفاً على حياة ما تبقى لها من عائلتها (أخوها ووالدتها) فباتت كالسكاكين تقطع أوصالها...

تساقطت

13 تموز 2014

تساقطت على جبهته قطرات من الدَّمع انهمرت كالشلال من عينيها مروراً بذقنها بعد وجنتيها... تكاد الدُموع تحفر أخاديد في دربها، يكاد الحزن يفتت كبدها!

فتح عينيه، فترأت له خيالاتٍ تتراقص جيئةً وذهاباً كالِدُخان المنبعث من شمعة خمدت نيرانها للتو، ثم بدأت هذه الخيالات تؤول إلى صورة ضبابية مغبشة لا يكاد يميّز فيها شيئاً. أغلق التعب عينيه واستسلم للظلمة التي أخذت تمتصه ثانيةً إلى أن سمع نحيبها، فنبهه! فتح عينيه ثانيةً فرأى قمر تجلس إلى جانب سريره تبكي بألمٍ شديد!

ولكن ما الذي يبكيها؟! ما الذي حدث لها؟! أين هو؟! أين هي؟!

أسئلة تفاعلت في وجدانه فقال بصوتٍ ضعيفٍ يتقاوى ويئن:

- قمر!

وقع صوته الناطق بحروف اسمها على سمعها وكأنه جرعة حياة! فانطلق قلبها يخفق بشدة واستيقظت ملامح الحياة على وجهها وردّت (بسام!) وشرقت بدمعها، سألتها بسام:

- أين أنا؟

- أنت في المشفى الميداني

- ألم يقصف؟

- إنه مشفى آخر

- لماذا أنا هنا؟

- ألا تذكر؟

- أذكر ماذا؟

- لا شيء

شعر بسام بالألم عميق يتغلغل في أعلى كتفه كلما لفظ حرفاً، فتذكّر!

- أنا مصابٌ أليس كذلك؟

- نعم أنت مصاب

- أين صخر؟

ارتبكت قمر بم تجيبه؟ وهي التي لا تعرف هل يسمح وضعه الصحي بأن تخبره أم أنه من الأفضل أن تخفي عنه. ترددت قمر ثم قالت:

- ربما صخر في العمل

جاءت كلمة (العمل) لتحوي الذاكرة في فكر بسام إنه يتذكر الموت نعم إنه الموت فسألها:

- هل استشهد؟!

سارعت قمر للرد عليه:

- كلا لم يستشهد، هو حي يرزق

رداً عليها بسام وهو يجاهد لإكمال الذكرى:

- وكأنني رأيته!!

قاطعته قمر:

- صدقني يا بسام صخر لم يستشهد إنه جريح فقط لكن جراحه أخطر نوعاً ما

تابع بسام وهو يلوك الأسى وينتلع المرار الذين خلقتهم الذكرى:

- نعم، لقد أصيب أمامي

ثم سكت وأخذ يصارع غصاته وآلامه بينما أخذت الذكريات تمر إليه بوضوح أكثر تماماً. ها هو يتذكر صخراً وهو يسير أمامه يحمل أوراقه ويعيد الأسئلة التي من المفترض أن يطرحها على السكان في السوق بهدف توضيح أثر الحرب على معيشة المواطنين بسرعة وكفاءة وإذ سمع صوت طلقات رصاص تناثرت هنا وهناك! ها هي الدماء التي تساقطت من جسد البائع قد سالت فوق أكوام الخضار التي انكب فوقها! وتلك الدماء التي انهمرت من صدر الفتى صبغت الخبز الذي كان بين يديه، وما هذه الدماء؟!

إنها...إنها دماء صخر! لقد بلّلت الأوراق التي كان يحملها...وهو؟! لا يذكر بسام عن نفسه شيئاً. لا يذكر أي شيء مطلقاً مطلقاً سوى أنه دخل فجأة وبدون مقدمات في نفق من العتمة.

سألها بسام والتعب يغلف صوته:

- كيف أتيتُ إلى هنا؟
- لقد أسعفَكَ النَّاسُ في السوق
- وكيف علمتِ بمكاني؟
- أخبرني الطبيب أنك أصبت بينما أتت بي زوجته إلى هنا
- منذ متى وأنا هنا؟
- منذ ما يقارب الأسبوع تقريباً
- هل أجريت لي عمليات جراحية؟
- نعم لاستخراج رصاصة في أعلى كتفك ورصاصتين من بطنك
- نجوتُ بأعجوبةٍ إذ؟!
- نعم بأعجوبة!
- ثم تذكّر، نعم لم تكن تلك التي رأها منامات، نعم إنها حقيقية، إنها مشاهد لقمر. كان يراها إلى جانبه كلما فتح عينيه خلال هذا الأسبوع فساعة تدعو له وساعة تضع له الكمادات وأخرى تبكي. أراد أن يرفع يده فيضعها أعلى كتفه المتألم فججز، ثم حاول ثانيةً فتمكّن من ذلك بعد جهدٍ جهيد.
- تحسّس مكان إصابته وضغط على أسنانه وصاح: آآه!
- عاد انهمار الدمع ينضح من عيني قمر وجلست على ركبتيها قرب سريره تنظر إلى عينيه بكل الرجاء الموجود في الأرض وقالت له:
- أرجوك لا تتحرّك! لا تتعب نفسك!
- أشفق بسام على عيني قمر الملانة وهبَّ كي يخفف عنها فقال:
- لا تخافي عليّ يا قمر! لا داعي لهذه الدموع كلها!
- كيف لا أخاف عليك يا بسام؟ كيف لا أذرف الدموع لمصائبك وأنت كل ما تبقى لي من هذا العالم؟ لقد توقفت قلبي خوفاً عليك!
- تبسّم بسام في سره رغم الآلام المتكاثرة على جسده وتساءل: ما أغرب هذه الدُّنيا المتقلّبة! ما أسرع تغيرها!
- في البارحة كان خوفي عليها أشدّ ما يتعب قلبي!

واليوم أتى دور قلبها ليتوقّف خوفاً علي!

لماذا تراها تخاف عليّ لهذا الدّرجة؟! ولماذا تهتم بإصابتي؟

أتراها تقفُ إلى جانبي اليوم رداً للجميل معها في الأمس؟

أم أن الأمر يعدو كونه رداً للجميل؟

هل يعقل أنها تحبني؟

هل يعقل أن ملاحظة صخر كانت صحيحة وأنا الذي أحبّها؟

هل هذا هو الحب؟

أجاب بسام نفسه:

نعم هذا هو الحب! هذا هو الشعور الذي تنكّرت له شهوراً! هذا هو الشعور القادر على منحنا الرغبة في

الحياة، في المقاومة، في الاستمرار... أكرم به وأنعم من شعورٍ جبارٍ خلاق!

وهذه هي حبيبتي التي كتمت عنها... تجلس إلى جانبي جلسة الحبيبة المتألّمة على حبيبها. أراد بسام أن

يمسك يدها التي ما ملّت من مسح دموعها ألماً عليه فيقبلها، ثم يشدها إليه فترتمي فوق حضنه علّه يستمد

منها الرّوح، علّه يتقاسم معها ما تبقى له من حياة... لكنه اكتفى بالقول:

- قمر...

نظرت إليه بعينين متأهبتين تنتظر أن يطلب فتساعده، أن يأمر فتبني، لكنه فاجأها بقوله:

- أحبك!

ما أجمل الحب حين يهبك أجنحةً تقتلعك من سرير الإصاّبة وتحلق بك بعيداً عن عالم المرض والشقاء!

ما أجمل الحب حين يبتشك من مستتقّ الآلام ويضعك على درب الآمال!

ما أجمل الحب حين يأتي كمنجدٍ ومخلصٍ ومؤازر!

في هذه الأثناء كان غيث جالساً في الرّؤية المظلمة ذاتها تلثّه العتمة المتوحشة التي افترست المكان،

يجتاحه البرد الذي استوطن الأرض العفنة، لا يسمع إلا صوت الصراصرير ولا تزوره إلا الفئران ولا تجالسه

إلا الحشرات ولا يقصف في رأسه إلا تفاصيل استشهاده وزجته وطفليه... ها هو يلوك الحسرة والمرار كلما

تمعّن في تفاصيل جرحه الجديد، ثم أخذ يسأل نفسه:

كيف لها أن تخون؟

منى؟!... منى التي تمئنت عن حضني أنا الذي أعتبر شرعاً زوجها؟

أرى ملابس نومها في غرفة طارق؟

كيف يمكنني أن أفهم ما رأيت إلا على النحو الذي فهمته؟

منى تخونني!

كيف استطاعت أن تخدعني طوال الشهور الستة الماضية؟

كيف أجادت لبس وجه الملاك وتمثيل سلوك الأظهار؟

وأنا المغفل الذي كنت مبهوراً برقي سلوكها وقيمها رغم تحررها!

كيف تخون؟ ومع من؟ مع طارق! ذلك الفتى النذل! لم أرتح له مذ أول مرة رأيته فيها!

لم أرتح لحديثه معها! لم أرتح لتباسطه ورفع الكلفة بينهما! لم أرتح لمشيته إلى جانبها لاقتربه منها!

وهنا تذكر غيث شيئاً مريباً جداً، تذكر أنه في نهار استشهاد زوجته وطفليه وبينما كان يقف مع رجل يحادثه على شاطئ بحر غزة ويراقبهم من بعيد وإذ لمح رجلاً غريباً اقترب منهم، لماذا يشعر الآن أن هذا الرجل الغريب يشبه طارقاً بكيفية ما؟

ربما يشبهه بعرض منكبيه؟ أو باستقامة ظهره؟ أو ربما يشبهه في طريقة مشيته، لكن اقتراب هذا الرجل من زوجته وطفليه أشعره بالقلق رغم أنه لم يؤذهم مطلقاً.

ولكن ما الذي حدث بعد ذلك؟!

دوى انفجار لغم مرق زوجته وطفليه!!

ما علاقة اقتراب ذلك الرجل الغريب بما حدث؟! غيث لا يدري

هل قضى ذلك الرجل نحيبه مع الأسرة وتناثرت جثته مع جثتهم؟! إنه لا يدري

ما علاقة مشهد اقتراب الغريب من زوجته بمشهد اقتراب طارق من منى؟! الجواب مرة أخرى لا يدري

إلا أنه يدري جيداً أن هذين المشهدين تبعهما كارثة كبرى لحقت به وأفقده نصفه الثاني بطريقة تراجيدية!

انحدرت دمعة حارقة من عيني غيث، وابتلع غصة مريرة كاللحم ثم سمع صوت صرير الباب الصدى يفتح وأدخل له صحن فيه القليل من الطعام ثم أعيد إغلاقه مرة أخرى الأمر الذي نبهه أن وقت الإفطار قد دخل.

في هذه الأثناء وفي منزل الخلايلي سَمِعَتْ منى صوت انكسار الصحون بعد سقوطها من على مائدة الطعام! فهَيَّت إلى الغرفة وهي تشعر بالقلق على والدتها التي خشيت عليها من ارتفاع السكر من جديد لتجد أن المغمى عليها هي زهراء!

ها قد غابت عن وعيها ومالت بجسدها على المائدة فدفعت الصحون والملاعق أرضاً. سارعت منى في طلب الطبيب لها الذي حمل لها أخباراً أكثر سوءاً عنها؛ إن الضغط النفسي الذي ترزح تحته زهراء من جديد بسبب اعتقال أبيها وأخوتها جعلها تعاف الطعام ما سبب لها وهناً وعجزاً عن الحركة والكلام.

شعرت منى بالألم على مصاب زهراء، هذه المرأة التي تعيش في دوامة من الحزن والمرض والضعف تحزن فتمرض وتمرض فتحزن، تضعف عضوياً فتضعف نفسياً، وتضعف نفسياً فتضعف جسدياً، لا بدَّ لها أن تتعلم الصمود! لا بدَّ لها أن تقاوم أن تصبح أقوى! إن لم يكن من أجلها فمن أجل طفلها، لا بدَّ لها أن تستمر لأنَّ في استمرارها استمرار لهما.

لامت منى زهراء، استنكرت حالها ومصابها فهي ترى فرقاً كبيراً بين صمود والدتها عندما ربت أطفالها وبين انهيار زهراء، نظرت منى إلى زهراء بعينين حادتين، وقالت:

أنا من سيعلمها كيف تنسى الانهيار والاستسلام وكيف تستأسد!

27 تموز 2014

أخذ يداعب شعرها بيديه ثم رفع الغطاء الذي يغطيه ويغطيها ليتأكد أنه وصل حتى أعلى كتفيها. لقد باتت طول الليلة الماضية مرتدية ثوب النوم هذا الشفاف العاري الظهر، إنها لم تعد تقوى على تحمل الحر خاصة أنها ما تزال في فترة الوحام في أول حملها.

شعرت به فالتفتت إليه وتبسمت في وجهه:

قال لها:

- صباح الخير حبيبتي
- صباح النور حبيبي
- كيف كانت ليلتك؟
- كل ليالي معك سعيدة
- وكيف أصبحت الآن؟
- أفضل من قبل
- هل بإمكانك الصيام اليوم؟
- أعتقد ذلك
- لا تكلفي نفسك ما لا تطيق، لقد رخص الشارع للمرأة الحامل والمرضة الإفطار في رمضان
- أشعر أنه بإمكانني الصيام، لا أشعر بالدوار أو الضيق
- حسناً حبيبتي أريد أن أخبرك شيئاً
- تفضل
- لقد ناقشت ما قلته لي بيني وبين نفسي وشعرت أنك محقة
- كنت أعلم أنك ستؤيد فكرتي

- لا بدّ أن نعلن زواجنا اليوم والموضوع سهل وفي غاية البساطة، فانتظارنا للظروف حتى نتحصّن لم يفدنا مطلقاً بل ازداد الوضع سوءاً، فولدي ووالدتي لن يستطيعا القدوم من كندا إذ كلما ركب والدي الطائرة هبط ضغطه وعُرض حياته للخطر.

وابن عمي بسام الذي ذهب لتغطية الأحداث في سوريا أضحى جريحاً. وزوجة عمي أم بسام صحتها في تدهور، كل هذا والحمل سوف يظهر جلياً عليك منذ الآن فصاعداً كما أنني بئ أكره لي ولك التسلّ والخفاء - معك حق يا طارق! لقد كنت متأكّدة من أنّك لن تكثرث للمظاهر والبهارج التي تضعها والدتي كعقبة أمامنا

- لكنّ والدتك محقة يا دعاء! من حقّ الأم أن تفرح بزفاف ابنتها وأن تشترط على عريسها ما تريد فمن يخطّب الحسنة لم يغله المهر.

نظرت إليه متصنعة العتب وقالت:

- أمي تتبالغ في حبّ المظاهر يا طارق، لا داعي للحفلات مطلقاً! لا داعي للحجز في أفخم الصالات! لا داعي للإسراف في المائدة المفتوحة! لا داعي لكل ذلك!

ثم ليس من حقّها أن تشترط عليك حفلاً قد يكلفك رواتب سنة كاملة!

وأخيراً أرى أنه من المعيب علينا أن نقيم الأفراح ونحن وسط هذه المعمة من الآلام!

- معك حق لن نحتفل، فقط سوف نكتب على صفحتينا الآن أننا قد أصبحنا زوجين منذ شهرين مضياً ولقد قرّرت أن أصنع وليمة في أحد المساجد كل ليلة من الآن حتى انتهاء رمضان!

- فكرة رائعة يا طارق! لا اعتراض عليها مطلقاً! يكفي من كل موضوع الزّواج أنّ زواجنا قد تمّ بمباركة أمي وأبي وأخوتي وأني لست لك الثوب الأبيض في أول ليالينا أما موضوع الصالة والهدايا والبذخ والمدعويين فهو موضوع ثانوي لا أكثرث له ما يهمني ربما هو أن يحضر حفل زفافي -فيما لو أقمتم حفلاً- أهلي وأهلك المقربون وجّلهم عاجزون عن الحضور!

قطّب طارق حاجبيه وقال لها:

- لكني أوّد لو أدعو كل أهل الأرض ليشهدوا حفلنا أود لو أحمل مكبر صوت وأصرخ في سمع البشرية كلها...دعاءااا زوجتي...دعاء ملكي...ملكي وحدي!

رنت إليه دعاء بحب واحتضنت وجهه بكفيها وقبّلته من بين عينيها وقالت:

- دعاء زوجتك وملكك وحدك علمت البشرية بذلك أم لم تعلم!

ثم نهضت من السرير وسارعت إلى الحمام وأخذت تتقيأ!

في هذه الأثناء فُتح باب الزنزانة الأخير ورمي بداخلها وافدٌ جديد بغلظة، رmqته عيون المساجين بنظراتهم المتعبة التي ملأت هذا المشهد المنكر! ثم أُغلق الباب وابتلع الممر الخارجي العسكريين. بدأ رغم إنهاكه يتفحص مأواه الجديد، ولكن سرعان ما باعته صوت مبهوت يحمل أطناناً من لحن الاستغراب وإشارات التعجب والاستفهام يتساءل:

- دكتور غيث؟! أهذا أنت؟!

أجال غيث بصره إلا أنه لم يتمكّن من تحديد هويّة السائل نظراً لاكتظاظ المكان بالمساجين، وسرعان ما هبّ أحدهم قائماً من بين الجموع إنه رجلٌ معتدل القامة قوي البنية يوحي هندامه ببقايا أناقة وترتيب واقترب من غيث يقول:

- أهلاً وسهلاً... أهلاً... أهلاً د. غيث

ردّ عليه غيث:

- أهلاً بك! ولكن هل تعرفني؟!

أجابه الرجل بسرعة:

- طبعاً أعرفك أنت الدكتور غيث الباشا خطيب الأستاذة منى، أنسيبتني؟!

تأمل غيث وجهه فلم تسعفه الذاكرة فسأله:

- عفواً لكني لم أتذكرك

- أنا خالد سائق سيارة الأجرة التي لحقت بك وبأسرة الأستاذة منى مع السيد طارق إلى دار الأيتام، عندما أوصلت لكم المشتريات التي نسيتهما الأستاذة.

رفع غيث رأسه وفتح فمه راسماً بسمَةً وقد أسعفته ذاكرته وقال:

- أهلاً بك يا خالد... لقد تذكرتك! أنت الذي أنقذتنا عندما عجزنا عن تركيب الألعاب ونفخها في ساحة دار الأيتام.

وضع خالد يده خلف رأسه وتيسّم قائلاً:

- بسيطة! دائماً ما كانت تستجد بي الأستاذة في الأوقات الحرجة، لكن لماذا يا دكتور أنت هنا؟
- ثم رفع خالد من وتيرة صوته قائلاً:
- أووه ما هذا الذي أصابك؟ هل اصطدمت بسيارة ما؟ أم أن هذه الكدمات بفعل التحقيق؟
- رد عليه غيث:
- لا اصطدمت بسيارة ولا هم يحزنون!
- جحظت عينا خالد وقال:
- هل هذه الكدمات بفعل التحقيق؟
- قاطع غيث هل سوف نتابع حديثنا واقفين؟!
- انتبه خالد إلى الإرهاق الذي حشش في جسد الدكتور وهيئته فصاح بالمساجين:
- أفسحوا الطريق للدكتور...تفضل... تفضل دكتور
- جلس غيث على الأرض إلى جوار خالد وقد أسند ظهره المجروح بفعل التعذيب إلى الحائط، فتأوه بتلقائية!
- تفاعل خالد مع تأوهات غيث وعقّب مستغرباً:
- لكن لماذا اعتقلوك يا دكتور؟ ما هي تهمتك؟
- رد غيث بسخرية:
- الإتجار بالمخدّرات!
- صاح خالد:
- ماذا؟! (مادّاً الألفين)
- وفتح فمه وفاضت الدهشة من محياه وتابع:
- ماذا قلت يا دكتور؟!
- ردّ عليه غيث:
- كما سمعت!
- منذ متى وأنت هنا؟

- منذ السادس من الشهر الجاري، كنت في المطار أنوي ركوب الطائرة المتوجهة من بيروت إلى القاهرة ومن ثم أدخل غزة عن طريق معبر رفح لكنني عندما دخلتُ غرفة الأمن في المطار أدخل الموظف اسمي على جهاز الحاسوب، ثم أتى ثلاثة رجال شرطة سألوني (غيث الباشا)؟!

أجبتهم: نعم

- تفصل معنا نريد أن نسألك عدّة أسئلة. أخذ رجال الأمن هاتفي واحتجزوني في المطار حتى حلّ آخر ساعات الليل ومنذ تلك الليلة وإلى اليوم وأنا إما في غرفة التحقيق أو في غرفة السجن الانفرادي

صاح خالد:

- أنت الذي كنت في المطار في السادس من الشهر الجاري؟! هل جاءت الأستاذة معي إلى المطار لتوديعك أنت؟! هل اعتقلت أمامها؟! هذا يفسّر شدّة جمودها وشحوب وجهها طوال طريق العودة. ولكن ماذا قال لك المحامي؟

ردّ عليه غيث:

- لا علّم لمنى بموضوع اعتقالني! ولا أريدها أن تعلم مطلقاً! وإلى الآن لم أر محامياً!

- إذاً فواجب أهلك أن يوكّلوا لك محامياً

- لا أهل لديّ هنا يا خالد! خالتي في الخارج تؤدي العمرة وأولادها هاجروا إلى أوروبا منذ سنتين!

- إذاً ما الحل؟

- لدي صديق يدعى د. عمّار الحصري إذا خرجت قبلي أريدُ منك أن تتصل به وتخبره بموضوعي وهو سوف يتصرّف!

- رغم أنني سوف أخرج قريباً جداً لا محالة لأنني موقوف بسبب شجار بين مجموعة سائقين إلا أنه لا داعي للانتظار حتى أخرج، بإمكانك أن تتصل به الآن يا دكتور

دُهِش غيث وقال له:

- كيف؟

- يوجد هاتف هزّبه بعض المساجين إلى داخل هذه الزنزانة أمهلني عدة دقائق وأنا أتيك به.

مباشرة نهض خالد واقتحم جموع المساجين وأخذ يتنقل من مجموعة إلى أخرى ثم ما لبث أن عاد إلى الدكتور غيث والبشر يضيء وجهه وقال له:

- هذا هو الهاتف يا دكتور بإمكانك أن تتصل بمن تريد

- شكراً لك يا خالد، فعلاً أنت رجل المهمات الصعبة!

ابتسم له خالد وقال:

- العفو يا دكتور، على فكرة إنه متصل بالنت أيضاً

- رائع! (صاح غيث) وأسرع إلى الهاتف يبغى التواصل معتمداً فيس بوك بعد أن عجز عن تذكر أرقام هواتف الجميع. فتح بيانات الهاتف، أدخل بريده الإلكتروني ثم كلمة السر، وبذلك فتح حسابه الشخصي وإذا به يتفاجأ أن حرباً مقيّنة اندلعت مرّة أخرى وأخذت تنهش جسد غزة من جديد!

غرزت هذه الحرب الإسرائيلية أول أنيابها رسمياً في فجر الثامن من تموز أي بعد أقل من 36 ساعة على توقيفه وهو لا يعلم، لكن كيف له أن يعلم وهو معزول تماماً عن العالم الخارجي في زنزانته الانفرادية بلا هاتف أو تلفاز وجلّ وقته يقضيه في التحقيق المرير والسجن الانفرادي الأمر!

هاله عدد الشهداء، رؤيته المجازر، أدمى قلبه التواطؤ الدولي والصمت العربي والعالمي! شعر برغبة في أن يبصق على العالم كله! إنه يشعر بالغليان، يريد أن يخرج من زنزانته ويفجّر غضبه في وجه هذا العالم المتواطئ الذليل!

يجب أن يخرج من هنا! يجب أن يكون الآن الآن في غزة كي يساهم في مقاومة الحرب، تضميم الجراح، رفع المعنويات، لكن كيف يخرج؟! يجب أن يتواصل مع عمّار على وجه السرعة! أراد أن يكلم عمّار فمرّ عليه منشور آخر فصعقه يقول أنّ طارق ودعاء قد أصبحا زوجين منذ شهرين مضيا!

انصدم غيث عندما قرأ اسم دعاء، يذكره هذا الاسم بشيء هام بل بأشياء!!

دعاء كما يذكر هو اسم الفتاة التي ادّعت منى أنها تكلمها عندما اتصل بها طارق، وإذا كان قد تزوجها سرّاً منذ شهرين فهذا يعني أنه من الوارد جداً ومن الطبيعي أن تتكلم دعاء من هاتف طارق ذلك اليوم!

إذاً منى لم تكن تخفي اسم المتصل ذلك النهار!

ثم نظر إلى صورة دعاء فبُهِت! إنه يعرفها أيضاً! هذه هي السيدة التي شكّ أنها حامل عندما اصطدم بها أثناء نزوله على الدّرج غاضباً من منزل طارق!

ضرب غيث جبينه وقال: يا لك من متسرع متهور أعمت الغيرة بصيرته!

نعم!... نعم!... دعاء سمع باسمها أول مرة عندما كانت تتسوق مع منى وتشتري لنفسها من كل قطعة ملابس تشتريها منى! إذاً تلك الملابس الشغافة المغرية التي رآها في غرفة نوم طارق هي ملابس عروسته دعاء! وليست ملابس منى!

قال غيث لنفسه: ماذا فعلت بحبيبتك أيها المتهور الغيور! ماذا فعلت بها وبنفسك!؟

صاح غيث في نفسه: أين منى؟! أريد أن أعتذر منها!

حمل غيث تطبيق مسنجر على الهاتف وفتح الرسائل يريد أن يكلمها أولاً ويعتذر لها فرأى رسائل منى:

8 تموز 2014

أول أيام الحرب على غزة!

لا أريد أن أسألك لماذا فعلت ذلك!

لا أريد أن أبين لك بطلان تهمتك!

فذلك موضوع قد خُسم وانتهى!

لكن الحرب اشتعلت فجر اليوم في غزة وأظنك كنت عند الحدود ساعة ابتداء الحرب أو أنك قد اجتزتها توأ.... فهل أنت بخير!؟

9 تموز 2014

غيث! خلال أول 48 ساعة من الحرب شنت إسرائيل ما يفوق 500 غارة وهدمت أكثر من خمسين منزلاً! حتى أن أحد المنازل صعد على سطحه أهله لمنع الاحتلال من قصفه فقصفه الاحتلال بسكانه ونسائه وأطفاله! يبدو أنها حرب متوحشة تنهش لحوم كل من تراه! وأرجو أن تكون عميت أبصارها عنك!

16 تموز 2014

غيث! بدأ الاحتلال يرسل رسائل ومناشير لسكان حيّك حيّ الشجاعية ليغادروه!

واليوم قتل الاحتلال مجموعة أطفال كانوا يلعبون على شاطئ غزة، الأمر الذي ذكرني بطفليك الشهيدين! أرجو أن تكون بخير!

20 تموز 2014

اليوم قرّ الآلاف من حيّك حيّ الشجاعة سيراً على الأقدام تحت القصف المدفعي وأصوات الطائرات حاملين أطفالهم وآباءهم على ظهورهم في مشهد يؤكد أن النكبة عادت من جديد! وأنا منذ اندلاع الحرب أنقّب عنك تحت الأنقاض وفي صرخات المسعفين وبين أسماء الشهداء! أراجع أسماءهم اسماً اسماً! أدعو لهم بالرحمة ولك بالسلامة وطول العمر!

27 تموز 2014

آخر أيام رمضان

هذا الإفطار الأخير على مواعيد رمضان هذه الموائد التي غادرها الكثير من أهلنا إلى الجنة، وأنا اليوم ما زلت أبحث عنك وأسأل نفسي هل تناولت إفطارك على الأرض أم في السماء؟
خرج غيث من تطبيق "المسنجر" وأطفأ الهاتف دون أن يرسل أحداً! جلس على الأرض مبهوتاً صامتاً وانتحبت أعماقه! كيف سمح العالم لإسرائيل المجرمة الوضيعة أن تعود ثانية لشرب دماء أبناء وطنهم! كيف سمح العرب بإعادة اغتصاب أختهم أمام أعينهم من جديد؟
وكيف سمح هو لنفسه أن يشك بمنى؟! كيف أذاها؟! كيف أذى نفسه؟! أي غيرة حمقاء أعمت بصيرته؟!
ما الذي فعله بها؟! ما الذي فعله بنفسه؟!
ولكن ما ذنبه؟! لم يكن يعلم أن طارقاً متزوجاً دون أن يعلن!! وممن؟! من دعاء صديقة منى ورفيقة أسواقها؟!
والآن ما العمل؟!

لماذا ظلمت الدنيا غزة؟ لماذا ظلمت منى؟! لماذا ظلمتني؟! لماذا أنا هنا في السجن؟!
أسئلة ألحّت على غيث وأحالت عالمه الداخلي إلى جحيم وألبسته رداء المرض الشديد والحمى والهذيان وعطلت رغبته بالتواصل والكلام.

اعتقدت

28 تموز 2014، أول أيام العيد

يكاد يصل إلى سرير صخر ماشياً ببطء تتجاذبه آلام الماضي وهدة الحاضر وآمال المستقبل، ها هو الحنين يغلي في داخله يوجب الشوق إلى رفيق المهنة والمحنة.

انتبه صخر ففتح عينيه ليجد بساماً يقترب من سريريه بمساعدة قمر. هللت الفرحة بقدم بسام، فصاح صخر وهو يقاوم من أجل النهوض لاستقباله: أهلاً... أهلاً بالأحباب!

تبسم له بسام وقد وصل إليه، فعانقه وقبّل جبينه قائلاً له بلهفة: حمداً على سلامتك! حمداً على سلامتك يا صخر!

عقبت قمر بكل هدوء: كل عيد وأنت بصحة وخير يا صخر، لقد أخفتنا عليك، حمداً على سلامتك ردّ عليها صخر باسماء: وأنت وخطيبك بألف خير يا قمر، أسأل الله أن يعيد عليكما العيد وقد شفيت جراحه ثم تابع مازحاً: خطيبك هذا العبقري الذي قرر أن يعمل صحفي ميداني زمن الحرب!

ضحك الجميع ضحك الأحبة الذين يلتقون بعد طول فراق وانعدام أمل التلاق... وأخذوا يهزؤون من هذه المهنة الخطرة والممتعة، الحلوة والمرة في آن واحد والتي كلفتهما دماء وجروح وشيء من إعاقة!

سأل بسام صخرأ:

- كيف أصبحت جراحك؟ كيف حال بصرك؟
- جراحي التأمّت، اليوم صباحاً أتى الطبيب ونزع آخر الخيطان عن الغرز، أما بصري فأظن أنني فقدت أكثر من 90% منه في عيني اليمنى، لكن عيناً واحدة بقي بالغرض! (قالها صخر مازحاً ومتهكماً)
عقب بسام:

- الله ما أجمل نفسيّك يا صخر! رغم الخسارة الفادحة ما زلت تمزح وتضحك!
- هناك من خسر حياته أو حياة أحبته يا بسام فما خسارتي بالنسبة لهم؟
- ما هي آخر تعليمات القناة لنا يا صخر؟

- لا جديد... سوف يتم نقلنا في سيارات الصليب الأحمر إلى تركيا وبعد استراحة بسيطة فيها، سوف نعود إلى لبنان!

- آه لو تدري كم اشتقت للعمل في بناء القناة! كم اشتقت لمكتبي! لفنجان القهوة عليه!

- أنت الذي جنيت على نفسك يا بسام....

- ولماذا أنت هنا مادامت جناية؟ ... أنت تعرف أكثر مني أنها قمة الخلق والنبيل والإحساس أن تغطي مجريات حرب، أن تتقل أحداثها للعالم مهما كلفك عملك من تضحية وأثمان

- بالمناسبة بئ لا أستغرب موافقك يا بسام! تواصلني مع أختك جعلني أنفهم مثاليك التي هي جزء من مثالية أستاذك.

- منى أخت رائعة!

- فعلاً إنها مناضلة لا تستسلم! منذ أول ساعة سمعت فيه خبر إصابتنا تواصلت مع إدارة القناة وحصلت على رقم زوجتي وما زالت إلى جانبها منذ ذلك الوقت ترفع معنوياتها تصبرها وتقف إلى جانبها وإلى جانب أطفالي

عقب بسام:

- هذه منى منذ كانت صغيرة لا تهزم ولا تستسلم وتعمل على رفع الهزيمة عن المحيطين بها. لكن بالمناسبة ما هي أخبار راشد عباس؟ ما هي أخبار نغم؟

تبادل صخرٌ وقمر نظراتٍ سريعة مضطربة ثم حسم صخر الأمر وقال:

- أخبارهما أسوء مما تتوقع يا بسام

- ماذا حدث لهما؟

نظر صخر إلى بسام بأسى وقال:

- لقد نفذ الخاطفون تهديداتهم!

فتح بسام عينيه وقال مندهشاً:

- ماذا نقول؟!

- كما سمعت بسام! يؤسفني أن أقول لك أنهم فعلاً قتلوه وصوّروا عملية قتله ونشروها على النت!

- ولكن لماذا؟! بماذا أذاهم راشد؟!
- راشد لم يؤذِ أحداً مطلقاً ولذلك قتلوه! قتلوه لكيلا يفكر أي شخص آخر غيره بمساعدة الجرحى والفقراء والنازحين
- قال بسام مبهوتاً:
- ما هذا الذي يحدث يا صخر؟! من أين أتت هذه الغيلان؟! لماذا تجرّدت البشرية فجأة من إنسانيتها في هذه المنطقة وعادت إلى الهمجية؟!
- إنها الحرب يا عزيزي! إنها الحرب! تُسَعِّرُ الأحقاد وتبثُّ الكراهية وتجعل شرب نخب الدَّم والرقص على الأشلاء المتعة الأولى فيها!
- احمرّ وجه قمر لم تستطع أن تخنق غَبْرَاتِها أكثر باغتها البكاء وهي تقول:
- رحمه الله! كانا أروع حبيبين عرفتهما! ما أشد براعة الموت في افتراس الأحباب؟!
- انهمرت دموعها وبدأ عليها التأثير الشديد فاستأذنت للخروج..
- عندما غادرت الغرفة توجّه صخر إلى بسام وسأله:
- كيف وجدت قمر؟ هل تأكّدت أنني كنت محقاً عندما أخبرتك أنّك تحبها؟
- خشي بسام أن يكون صخر مازال شاكاً بقمر فقال له:
- لقد وجدتُها من خير النساء يا صخر! نعم وتأكّدت أنك كنت مُحَقّاً! نعم كنت أحبها لكنني أتجاهل مشاعري!
- نظر صخر إلى بسام نظرة توحى بتقبل ما قاله الآن ثم قال:
- لدي أخبار تهكم تتعلّق بقمر يا بسام
- أجابه بسام على الفور:
- ما هي؟!
- مالك شحبت هكذا؟!
- لقد أخفّفتي يا صخر! ما هي الأخبار الجديدة التي تهمني والمتعلقة بقمر؟
- الجديد أنني تيقنت أنّ فكرتك عن قمر هي الأصح يا بسام! قمر تليق بمناضل مثلك!

أشرفت البسمة على وجه بسام وأزاحت غيمةً من الغم والقلق بدت في أول الحديث ثم سألت صخرًا:

- ما الذي دفعك إلى التثبت من أن فكرتي عنها هي الأصح؟

- إنها تحريّاتنا يا بسام!

- تحريّات؟!

- نعم تحريّاتي أنا والشباب! (لم يخبر صخر بساماً أنه كان يضع الدواء المنوم لقمر في الشاي، ولقد ضغط على زوجة الطبيب لكي تصمت عندما كشفت أمره. وأنه اعتاد أن يأخذ هاتفها ويراقب اتصالاتها ومكالماتها ورسائلها المحفوظة والمؤرشفة، بل وحتى المحذوفة كان يستردها بمساعدة تطبيق يعيد الرسائل أنزله على هاتفها دون علمها ويرسل كل شيء إلى هاتفه مباشرة وبذلك علم كل شيء عنها فلا اتصالات مشبوهة ولا تواصل مع شخصيات)

ثم تابع صخر: بالمناسبة يا بسام لقد اكتشف الشباب وجود جاسوس بيننا!

سأله بسام باستغراب وقلق:

- من هو؟!

- إنه أحد الشباب المتطوعين في الجمعية الإغاثية التي كانت توزع الحصص الغذائية للعاملين في المشفى والأهالي النازحين وغيرهم، أغراه الطمع بالمال ودفعه للمتاجرة بأرواح الأمنين. لقد تتبعه شبابنا فوجدوه حلقةً في سلسلة تتألف من أربع جواسيس منتشرين بين المدنيين هذا في منطقتنا فقط. يتعمدون رمي شرائح ذكية توجه الصواريخ لتقصف أماكن تجمع المدنيين

- هل تعتقد أن المدنيين بالذات هم الهدف؟

- حقيقةً لا أعرف.... ربما المدنيين ليسوا هم الهدف لكن الجواسيس تقصدوا وضع الشرائح لقصف أماكن تجمع المدنيين وكانوا في الوقت نفسه يخبرون رؤساءهم أنها أماكن تجمع الإرهابيين، أقول ربما! فمن يدري؟! وهكذا كان سلوكهم أحد الأسباب التي دفعت الكل للتورط في قتل الكل وبه ضاعت حياة آلاف الأبرياء والمخدوعين!

- أنا أعتقد بأن المدنيين مستهدفون يا صخر! لا يمكن أن نتغاضى عن حجم الإيذاء الذي لحق بهم! لو كان الإرهابيون هم الهدف لكان حجم الدمار وزمن المعالجة أقصر بكثير

- وأنا أرحب باعتقادك يا بسام

هز بسام رأسه متصنعاً بطرافة التفكير وقال:

- ما يهمني أن وجهة نظري كانت أدق ونظيرتي بموضوع الجاسوس الذي بيننا كانت أصح
ردّ صخر بضحكة مبطنّة:

- لا تتسّ أن الجاسوس كان موجود لكن الخطأ كان في تحديد هويته فقط
تفاعل بسام مع ضحكة صخر قائلاً:

- أنا ممتنّ للأقدار التي أظهرت لك الحقيقة وأراحت بالك

- وأنا ممتنّ للأقدار التي وهبتك حبيبة أمينة جميلة الوجه والقلب يا بسام. بالمناسبة متى عقد قرانكما؟

- اليوم أتينا لعندك من أجل هذا الموضوع بالذات فالطبيب الآن يحضر شيخاً لعقد قراننا. سوف نعقدّه هنا
في هذه الغرفة في المشفى وسوف تكون أنت ولي العريس يا صخر
- أتشرف بذلك يا بسام

في هذه الأثناء في لبنان كانت زهراء على غير عاداتها قد اجتمعت مع طارق ودعاء في منزلهما تخبرهما
الخبر المفرح المحزن المضحك المُبكي الذي علمت به!
سألها طارق:

- ماذا بك؟! ما هذا الخبر الذي علمت به وشغلك إلى هذا الحد؟! هل يتعلق الأمر ببسام وطاغم قناة
الحقيقة؟

- كلا يا طارق، بسام بخير وعائد خلال أسبوع مع مَنْ بقي من الطاقم إلى لبنان!

- إذأ ما الخطب؟

- إنه غيث يا طارق!

- ماذا به؟ هل سمعت أخباراً عنه؟! هل استشهد؟!

- كيف يستشهد وهو لم يغادر لبنان حتى؟!

- كيف لم يغادر لبنان؟ ألم تودعه منى في المطار منذ أكثر من ثلاثة أسابيع؟

- نعم ودعته لكنها لم تعلم أن أُمّن المطار -قبل السماح له بالعبور إلى الطائرة- اعتقله!

- من أخبرك بذلك؟

- إنه السائق خالد عرب، لقد رأيته اليوم صباحاً فأخبرني أنه أوقف في السجن بسبب شجار بين السائقين وأنه في زنزانته وجد الدكتور غيث

- وما هي تهمة؟

- إنها الإتجار بالمخدرات!

- ماذا قلت؟!

- كما سمعت يا طارق!!

نظر طارق إلى دعاء نظرة ربية واستغرب ثم التفت إلى زهراء وقال:

- رغم أنني انزعج من هذا الرجل إلا أنني متأكد أنه ليس من صنف المجرمين تجار المخدرات!
ردت زهراء:

- هذا ليس وقت المزاح الثقيل يا طارق

- حسناً لن أمزح بعد الآن.... هل من خدمة أستطيع القيام بها؟

- نعم أريد أن نستمر في إخفاء الأمر عن منى وأن ترشدني إلى محامٍ قدير نوكله ليقوم بالدفاع عن غيث
ولماذا لا تريدان إخبار منى؟ هي الأقدر على مساعدته!

- أرجوك احترم رغبتني يا طارق هذه رغبتني ورغبة غيث، ثم إنه يصب في مصلحة منى

- رغبة غيث؟! هل تواصلت معه؟!

- نعم فمت بمساعدة السائق خالد بإجراء مكالمة هاتفية إلى داخل زنزانة غيث وهناك كلمته طويلاً وفهمت كل شيء منه.

رد عليها طارق:

- حسناً كما تريدان لكن اعلمي أنك لن تستطيعي أن تحركي ساكناً حتى ينتهي العيد فكل الدوائر الحكومية مغلقة

- أعرف ذلك تماماً....

في هذه الأثناء حملت دعاء نفسها ونهضت كي تجلب العصير الطازج فاستغلت زهراء هذه اللحظات ونظرت إلى هاتفها وأخذت تتصفح خواطر منى التي سطرته على صفحتها الشخصية في الفيس بوك

وفجأة انتابها مقدار مهول من الدهشة والذهول! كيف لم تنتبه من قبل أن خواطر منى التي كتبتها على صفحتها الشخصية إنما هي حديث الروح فيها من ألبسته ثوب الأدب! فقرأت:

8 تموز 2014

إنها العفيفة رغم كل ما يشاع!

الصامدة رغم كل المؤامرات!

الثابتة رغم كل النوائب!

والشامخة رغم هذا النزيف!

(ثار سؤال في ذهن زهراء هل تتكلم منى عن غزة أم عن نفسها؟)

12 تموز 2014

(في خضم المعركة التي تفرض علينا لا بد من الجراح! لكن الجراح أنواع ودرجات وأشدّها الجراح التي تصيبك من ظلم حبيب أو تخاذل قريب)

عادت زهراء وسألت نفسها: عن أي معركة تتحدث منى عن معركة غزة أم عن معركتها هي؟ وعن أي جراح تحكي: عن جرح تخلي العرب عن غزة أم عن الجرح التي سببه لها غيث عندما شك فيها وتخلي عنها دون أن يعطيها فرصة لتوضح له ما رأى؟

20 تموز 2014

(عندما تقارق الروحُ الروح التي ألفتها في عالم الأرواح قبل الخلق والبدء فإنها تشتاق ولكن السماء) سألت زهراء نفسها أليس في 20 تموز تمّت مجزرة الشجاعة، مجزرة الحي الذي سكن فيه غيث؟ هل تشي هذه الخاطرة بأن منى تشك في استشهاده غيث وتعبّر عن رغبتها في اللحاق به؟ أغلقت زهراء هاتفي وأغلقت أجفاني دون دموع الأسى على منى وغيث وأهلها وخالتها وسوريا وغزة!

إِغْرُورُفَتْ

3 آب 2014

تعمّد سكب نظرة حب حارة في أعماق عينيها عبرت عن اشتعال أشواقه لها ولألف قبلة من شفتيها وألف ألف عناقٍ يصهره بها وقال لها:

- ما أجمل الصباح حين يشرق من عينيك!

قالت له وهي ترفع الغطاء عنه متصنعةً الغضب ومتجاهلةً الغزل:

- وهل الصباح يبدأ عند حضرتك تمام الساعة الواحدة بعد الظهر؟!

ردّ عليها بلهجةٍ تفيض عبثاً وتلميحاً:

- ما حيلتي يا زوجتي المستقبلية يا قمري المنير، وقمري ينام بعيداً عن أحضاني أقصد بعيداً عن سمائي!

قالت له وهي تصدّ محاولته لاقتناص قبلةٍ من وجنتيها عندما انحنّت لترتيب الوسادة قربها:

- إنَّ المستقبل لناظره قريب يا زوجي المستقبلي!

(ال) ماذا؟! الـ مس تق بلي قالتها وهي تشدّد على حروفها ومقاطعها...

تأفف بسام وهو ينهض ويقول:

- يا لهذا المستقبل القريب جداً الشديد البعد يا قمر؟! إني أنتظر قدومه على أحرّ من الجمر! وهو مصرّ على تأخير قدومه!

وكأنه يسير باتجاه الماضي باتجاه الخلف بدل التقدم باتجاه الأمام والغد!

ردّت عليه قمر بعتب:

- انهض من سريرك الآن وفكّر بيومك ودع عنك انتظار الغد فهو آتٍ لا محالة

- لا أستطيع يا قمري! لا أستطيع! كم أتمنى أن تمضي هذه الأيام الثلاثة بأسرع ما يمكن! لا أعرف لماذا أشعر أنّ كل ساعة فيها أطول من قرون وأثقل من أطنان!

خلال ثلاثة أيام يا قمري سوف نكون في لبنان! تصوري! لبنان حيث تنتظرنا أُمي على أحرّ من الجمر!!

- حفظها الله يا بسام

- لو تعلمين يا قمر كم اشتقت لأمي؟! كم اشتقت لسماع صوتها، لطيب نظراتها، لاحتوائها، لحنانها كم أنا متحمس للساعة التي أعرفك فيها عليك وأعرفها عليك. سوف تحبينها جداً يا قمر! سوف تحبينها جداً... هل تعلمين لقد أخبرتني عدة مرات أثناء اتصالاتي الهاتفية المؤخرة بها أنها أحبتك من قبل أن تراكِ، صدقيني والدتي أعقل أنثى سوف تزينها...

هل تعلمين أنها بدأت تخطط لحفل زفافنا وبدأت ترسل منى للأسواق لتؤمن التجهيزات لغرفتنا؟ كما أنها أخبرتني أنها دعت كل الأقارب لحفل زفافنا فهي لن ترضى إلا أن تدعو كل من تعرفه فرحاً بي وبكِ!
(قال لها بسام ذلك وهو يحاول خلع قميصه، فاستدارت قمر محاولة إخفاء دموعها واضطرابها وشتمت نفسها: دموع غبية، لا بد أنه سوف ينتبه الآن إلى أن والدته في خطر! هل يمكن أن أثير انتباهه بسبب هذه الدموع ويسأل عن والدته أكثر فيكتشف أنها عادت إلى العناية الفائقة؟)

تبسّم بسام في بداية الأمر لاستدارة قمر وقال لها:

- بما أنك خطيبتني وقد عقد قراننا عند الشيخ وبحضور وليك والشهود فأنت زوجتي ويجوز للزوجة أن تساعد زوجها في خلع قميصه. وبما أنك ممرضتي يجوز لك النظر إلى الجرح أعلى كتفي وفي بطني!
وبما أن صدر الرجال ليس بعورة يجوز لك النظر اتجاهي!

رَدَّت قمر بصوت حيٍّ منذر بهطول الدمع:

- الأمر ليس كذلك يا بسام!

استدارت نحوه وقد أنهى لبس قميصه، فرصد بسام آثار الدَّمع في عينيها وسألها:

- ما بالك يا قمرى الحبيب؟! لم هذه الدموع في عينيك؟! هل هناك أمرٌ ما تخفينه عني؟!

مسحت قمر الدموع من على أبواب عينيها وقالت:

- وماذا أخفي عنك يا بسام؟! إنها دموعي وسيلتي الوحيدة للتعبير عن فرحي وعن حزني!

- وهل هذه دموع الفرح أم دموع الحزن يا قمرى؟

- إنها دموع الفرح المشوبة بالحزن يا بسام، أنا سعيدة ولا أكاد أصدق أننا خرجنا أحياء من سوريا بعد كل الذي كان! وأنَّ صخراً عائداً معنا وهو حيٌّ يرزق إلى أسرته، وفي الوقت نفسه أنا حزينة لأن الطبيب وزوجته قرَّرا البقاء في سوريا ولن يحضرا حفل زفافنا!

- هل تعلمين يا قمري أنني كنت متأكداً أنهما لن يغادرا سوريا رغم محاولاتني الحقيقية لإقناعهما بالخروج منها، فهذا الطبيب القدير لن يتخلّى عن مهمته مهما كلفه الأمر فقد وهب حياته لمداداة الجراح ولن يتخلّى عنها بعدما شاب شعره، وزوجته تلك الأسطورة المعطاءة التي تعاملت مع كل أطفال وطنها على أنهم أطفالها.. هذه النماذج بالذات لا تعيش بدون أوطانها وأوطانها قد تعيش بدونها.

في هذه الأثناء في لبنان كانت زهراء قد جلست للتو أمام المحامي الذي أكسبه حجمه الضخم وقُدّه الطويل وامتلأ جذعه نوعاً من مهابة زائدة، وأسرعت تسألّه بلهفة:

- هل من جديد في القضية التي طلبت منك أن تسأل عنها؟

أجاب المحامي بهدوء ووقار:

- نعم ولهذا أرسلت لك!

- ما الجديد؟ هل هو جديد مطمئن أم أنه جديد كارثي؟!

- على رسلك يا سيدتي، الحقيقة أنّ هذه القضية من أغرب وأجمل القضايا التي اطلعت عليها!

- لماذا؟!

- لأنها انتهت قبل أن تبدأ!

- الرجل معتقلاً منذ ما يقارب الشهر! بتهمة الاتجار بالمخدرات!! وتقول إنها انتهت قبل أن تبدأ؟!

- رويدك يا سيدتي! بتقييمي الشخصي وبناءً على خبرتي المهنية أستطيع أن أقول إنها قضية انتهت قبل أن تبدأ، اعتقال ما يقارب الشهر على ذمة التحقيق لا يشكل شيئاً في زمن التحري والاعتقال

- فعلاً صدق خالد عندما قال لي أن القضاء ظالم وخاصة بالنسبة للفلسطيني! اعتقال شهر بكامله لدكتور متعلم مثقف وتعرّضه للضغط والتعذيب تحت التحقيق لا يشكل شيئاً؟!

- للمرة الثالثة أقول لك على رسلك يا سيدتي! من ادعى أن القضاء اللبناني ظالم وخاصة بالنسبة للفلسطيني لا يفقه في القضاء شيئاً، قد يكون هناك ماطلة في النظر أو البت في قضايا الفلسطينيين لكن لا يوجد ظلم

فتحت زهراء فمها مجربةً مقارنة سريعة بين أقول خالد وأقول المحامي لكنها تجاهلت هذه المقارنة وسألت المحامي:

- المهم ماذا عرفت عن قضية الدكتور غيث ما الجديد فيها؟

أجابها المحامي بهدوء:

- في القضية شقٌ عادي يا سيدتي وشقٌ غير عادي؛ الشق العادي هو أن يتهم أي إنسان وخاصة إذا كان من سكان المخيمات بالاتجار بالمخدرات فهذا النوع من التهم درجة، قد يتهم أي شخص جاره أو زميله تهمة الإتجار بالمخدرات إنها نوع من التهم الكيدية.

عقبت زهراء باستغراب:

- ها؟!

تجاهل المحامي تعقيب زهراء وتابع:

- أما الشق الغير عادي في قضية الدكتور غيث والذي لم يحدث من قبل -على الأقل معي أنا المحامي والمزاول للمهنة منذ عشرين عاماً- هو ما سأقصه عليك:

- فقد جاء أحد الشباب الذين ادعوا أنهم كانوا يتعاطون المخدرات وكانوا يشترونها من د. غيث ويدعى (ع.أ) واعترف للقاضي!

- بماذا اعترف؟!!

- اعترف أن صديقه الحميم الذي كان يتعاطى المخدرات قد علم عن طريق ضابطٍ فاسدٍ مرتشٍ أنه سوف يتم القبض عليه وعلى زملائه في اليوم التالي فنصحته هذا الضابط المرتشي بأن لا يقاوم رجال الشرطة وأن يعترف أنه يتعاطى المخدرات ويعبر في الوقت نفسه عن ضيقه ورغبته الملحة في العلاج وبذلك يمنع سجنه ويرسل مع زملائه النادمين على تعاطي المخدرات والراغبين في العلاج إلى مركز إعادة تأهيل ويطلب منه فقط إحضار تقارير تثبت حضوره لمجالس إعادة التأهيل والعلاج ومن أجل أن يبرأ نفسه أكثر نصحه الضابط أن ينكر أنه يتاجر بالمخدرات لأن الاتجار بالمخدرات جناية كبيرة قد يحكم على صاحبها بالأعمال الشاقة بينما تعاطي المخدرات جنحة وقد يعفى عن صاحبها إذا التزم بمراجعة مراكز إعادة التأهيل، وهنا خطر لصديقه الحميم أن ينتقم من الدكتور غيث فطلب من أصحابه أن يدعوا أن د. غيث هو تاجر المخدرات الذي يبيعهم المخدرات، ومن أجل أن يبتكروا دليلاً يثبت تجارته المخدرات جمعوا كل ما تبقى معهم من حبوب وإبر وحشيشة الكيف والكوكايين وباز الكوكايين فوضعوها في حقيبة ودسوها في بيته في غرفة كان المالك الأصلي للبيت قد جمع أثاثه فيها وأقبلها طالباً من د. غيث عدم الاقتراب منها.

أغلقت زهراء عينيها وأعدت فتحهما وقالت مستغربة:

- ولكنهم كيف استطاعوا دخول شقة غيث؟! وكيف عرفوا بأمر الغرفة؟!
- استطاعوا دخول شقة د. غيث عن طريق المالك الأصلي للشقة فهو أحد أفراد المجموعة المتعاطية للمخدرات والمدعية أن غيث هو تاجر المخدرات الذي يزودهم بالمخدرات!
- وكيف صحا ضمير السيد... ماذا قلت لي اسمه؟!
- السيد (ع.أ)
- نعم، كيف صحا ضمير السيد (ع.أ) ولماذا قرّر أن يقول الصدق ويبرأ غيث بينما يورط أصدقاءه؟
- تبسم المحامي في وجه زهراء وقال:
- لن تصدقي!
- لن أصدق ماذا؟
- لن تصدق ما قاله السيد (ع.أ) للقاضي!
- ماذا قال؟!
- لقد أخبر القاضي أنه ذات مرة كان قد خرج مع والدته وبينما كان يشتري من أحد المحلات سبقتة والدته وعندما خرج من المحل لمح والدته المسنة الوقورة وقد تعثرت وسقطت على الأرض وانكشف شيء من جسدها! الأمر الذي شقّ عليه وتمنّى أن يموت قبل أن ترى أعين الناس في الشارع عورة والدته! وماهي إلا لحظات حتى رأى شاباً هبّ بسرعة البرق إلى والدته ورمى عليها معطفه وأدار لها ظهره ليحجبها عن أعين الناس ريثما تسوي وضعها وتسدل عباءتها، وعندما شعر أنها انتهت سألها هل انتهيت يا أمي؟!
- ولما أتاه جوابها: نعم يا بني، التفت نحوها ومدّ لها يده، وقال: أعطني يدك يا أمي! وساعدها على النهوض وعندما اطمأن أنها لم تصب بكسور طلب سيارة أجرة بإشارة من يده ودفع لها الأجرة، وعندما أخرجت الوالدة المعطف من نافذة السيارة تريد أن ترجعه له... قال لها: هو لك يا أمي!
- وما زالت أم السيد (ع.أ) كلما تذكّرت الحادثة تدعو لهذا الشاب الشهم الغيور الذي لا تعرف اسمه وكما ذكرته تدعو: الله يستر عليك يماً، الله يبعد عنك ولاد الحرام يماً
- لكنّ المفاجأة أن السيد (ع.أ) قد عرف أسمه ولكن أين؟ ومتى؟ في غرفة التحقيق عندما دخل ليتهمه زوراً إرضاءً لصديقه!

فتحت زهراء فمها وكزّرت إغلاق وفتح جفنيها لا إرادياً وأتت بحركة من رأسها تشي بأنها أدركت مغزى الحديث وسألت المحامي ببطء ودهشة:

- هل تعني...!؟

هزّ المحامي رأسه بالإيجاب وقال:

- نعم أعني أنّ هذا الرجل الشهم الذي ساعد أم السيد (ع.أ) المسنة هو الدكتور غيث!

لذلك كان من الواضح جداً في جلسة التحقيق عندما جمع المحقق السيد (ع.أ) بالدكتور غيث أنّ السيد (ع.أ) قد أصابه التردد والوجل فقد عرف غيثاً مباشرةً من أول لحظة بينما لم يعرفه د. غيث، ثم بمرور الوقت لم يستطع السيد (ع.أ) أن يستمرّ في توريط غيث، فعاد أدراجه إلى القاضي وقصّ عليه القصة فأخبره أنه لم يرَ غيثاً يتاجر بالمخدّرات مطلقاً وأن هذه التهمة كيدية لفَقّها له صديقه وشرح له كيف جمعوا المخدرات في الحقيبة وماهي مواصفات الحقيبة وماهي محتوياتها وأين وضعوها مما لم يدع مجالاً للشك في صدق أقواله!

ولما سأله القاضي إذاً لم شهد زملاؤك زوراً ضد د. غيث أجابه أنهم فعلوا ذلك لإرضاء صديقهم الذي كان يستضيف مجلسهم ويزودهم بالمخدّرات على نفقته: عدنان أبو الليل.

شهقت زهراء عندما سمعت باسم عدنان أبو الليل، أعاد لها هذا الاسم ذكرى أمر ساعة مرّت عليها في حياتها وهي محاولة الاعتداء عليها في محل بيع الورد وأدركت سبب حقد عدنان أبو الليل عليه وسبب تلفيق التهمة له!

امتتع وجه زهراء وافتزّت شفتاها عن ابتساميّة جريحة شاحبة ثم قالت للمحامي:

- هل تعرف أن عدنان أبو الليل كان تاجر ورود وكنت أعمل عنده من قبل؟!

في صباح اليوم التالي وبينما كانت منى مائزلة نائمة على السرير إلى جوار والدتها في المشفى مرهقة متعبة بعد أن أمضت طوال ليلتها الماضية تتابع آخر مستجدات الحرب على غزّة وتبحث بصمت أليم قاتل عن أي خبر يتحدث عن غيث، وإذ هبّت ريحٌ لطيفةٌ في الغرفة حملت رائحة عطرٍ رجاليٍّ أخذٍ استتارت كل ذرات منى وخلاياها.. هذه رائحة العطر المفضلة عند غيث! لقد عادت بها الرائحة بالذكرى إلى يوم دخولها مكتب المسؤول بعد حفل مناصرة غزّة عندما سُجّرت برائحة غيث قبل أن تراه أو حتى تتعرّف عليه ثم أخذتها إلى الحزن الأوّل الذي جمعها به... لقد كانت تفوح منه هذه الرائحة الأسرة بالذات.

قالت في نفسها ياله من ممرضٍ يحترم نفسه هذا الذي جاء إلى عمله في المشفى وقد اختار هذا العطر.... رفعت الغطاء عن نفسها ففوجئت أنَّ والدتها قد غادرت السرير قبلها. وقفت أمام المرأة رثبت شعرها رشفت بعض الماء أحكمت شدَّ الحزام حول خصرها تحسَّست جيداً حيث استبدلت الطوق الذهبي الذي كان يحمل اسم غيث بطوق آخر يحمل اسمها، فاض مزيج من الحنين يقابله مزيج من العتب في صدرها، خاطبته في نفسها: لا أستطيع أن أكرهك أنت الذي قد تكون تحت الأنقاض الآن أو في المشفى أو تسعف الجرحى لكنني قد أكره هذه الظروف التي رثبت لك أن تصاب بطعنيتين دونما توضيح؛ طعنة رؤيتك لملابس ظننتها ملابس خطيبتك في غرفة رجل غريب وطعنة اندلاع الحرب لحظة عودتك لبلدك!

سمعت منى طرقاً خفيفاً على الباب، فالتفتت نحوه تريد أن تفتحه وقبل أن تصل إليه فُتح الباب ودخل من خلاله سعيد وزيدٌ يحملان مناطيد حمراء وخلفهما وقفت زهراء تحمل باقة ورد ومن خلف والدتها ظهر غيث فوجدت وجهه المضىء وعينييه الباسمتين وثغره المشرق وقد انطلق نحوها فاتحاً ذراعيه لاحتضانها، توقفت منى مكانها عقدت حاجبيها وذراعيها وسط صدرها فتمهل غيث في سيره وقد رصد رفضها ثم استدارت عائدة نحو النافذة وأخذت تتأمل العصافير وهي تطير بعيداً عن أعشاشها.

يُتَبَعَ...

الفهرس

1	نسيت.....
8	أضافت.....
14	خطّطت.....
21	قَدَفَت.....
27	اشترطت.....
33	خرجت.....
39	طرقت.....
45	اشترت.....
52	تماسكت.....
60	رَدَّت.....
66	تمالكت.....
75	انسحبت.....
82	رَمَتْ.....
89	نَجَّت.....
95	دَوَّت.....
102	شَغَرَت.....
110	تساقطت.....
116	التَقَّت.....
124	اعتقدت.....
131	إغرورقت.....

حقوق النشر محفوظة

